BOBST LIBRARY
3 1142 02823 4329

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

بين الجزر والمد

صفحات في اللغة والآداب والفن والحضارة

بقلم

« مي »

نشرته مجلة « الهلال »

حقوق الطبع محفوظة

مطبعة الهلال

مصر يونيه سنة ١٩٢٤

Ziyadah, Mayy
"

بين الجزر والمد

صفحات فى اللغة والآداب والفن والحضارة

/Bayna al-jazr wa-al-madd/

بقلم

« مي »

نشرته مجلة « الهلال »

حقوق الطبع محفوظة

مطبعة الهلال

مصر يونيه سنة ١٩٢٤

AC
106
.Z5
1924
c.1

MAY 30 1985

المقدمة

مي كاتبة الشباب تنافح عن حقوقه وتعتذر عن اغلاطه. وهي تفعل كل ذلك بروح الاعتدال مسوقة في ذلك بالطبع لا بالتطبع

ثم هي ايضاً لانها شرقية، تحب الشرق وبخاصة مصر وسوريا بقلبها وعواطفها. ثم لانها ذكية، تحب الحضارة الغربية وتدعو اليها. وذكاؤها ووطنيتها كلاهما يدفعها الى الاعجاب بهذه الحضارة والحث على اصطناعها. لأنها من الجهة الواحدة نتاج عظيم للذهن الانساني ومن الجهة الاخرى سلاح يمكن الشرق ان يرد به غارة الغرب

فبهذا المفتاح يمكننا أن نفهم مي. وأن ندرك معنى المثل العليا التي تتشوف الى تحقيقها وأن نعطف عليها ومن هذه الوجهة تكاد جميع مؤلفاتها تتجه الى غاية واحدة

وان اختلفت الوسائل . وهذه الغاية هي اصلاح هذا الشرق وتنبيه شبابه الى اصطناع المثل العليا والحث في كل ذلك على التجديد

فهي تساير الشباب في رغبته في تجديد اللغة والميل بها الى التطور والاقلاع عن الجمود . وتسايره أيضاً في نزعته الى الاصلاح الاجتماعي أو الاشتراكي الذي كان سبباً في نهوض أوربا في الثلاثين السنة الماضية . وفي تشوفه الى صوفية طليقة من القيود المذهبية والفروق الدينية التي كثيراً ما مزقت الوحدة الوطنية والرابطة القومية . ولكنها لما استقر في نفسها من ذلك المزاج الذي يقوم لديها مقام الصابورة من السفينة تراها على الدوام معتدلة بحيث يقرأها الشاب الثائر فيرتاح اليها ويقرأها الشيخ الجامد المتزمت فلا يجد ما ينقم منها

وانه لمن أوضح البراهين على صحة نهضتنا أن نجد آنسة مسيحية مثل مي تدافع عن العرب واللغة العربية كما يرى القارئ في احدى مقالات هذا الكتاب . ففي هذه المقالة : « حياة اللغات ومونها » نجد مي عاطفة على اللغة

العربية راجية لها الحياة تستقرئ الماضي لكي تستضيء به في المستقبل تنهكم من طرف خفي على اولئك الشيوخ الذين الفوا المجمع اللغوي فما هو أن تركهم لطفي السيد حتى انتثر عقدهم

وهنا لست استطيع أن اترك هذه الفرصة تمر دون أن آسف على خروج الاستاذ لطفي السيد من ميدان الادب والسياسة . وكيف لا نأسف على زمن كان يقود فيه الشباب نحو المستقبل يضرب الجمود بمطارق الحديد ويعلمنا مبادئ الوطنية وحلاوة الاسلوب الساذج الخالي من الصنعة وأمانة التفكير ومكافحة الاستبداد

ولست أظن الا أن مي قد تأثرت به كما تأثر به جميع الملتصقين بالحركة الفكرية في مصر . ومن الصعب أن نعرف جميع المؤثرات التي أثرت في ذهن مي . فان سعة ثقافتها تكاد تحول دون ذلك . فهي تعرف عدة لغات أوربية تقرأ آدابها كما تقرأ العربية وتلتذها جميعاً . ومن هنا بعض اعجاب الكثيرين بها

وكيف لا نعجب بفتاة شرقية تقول (في مقال

المحروسة) : « فالمسئولية صارمة تثقف الذات القومية والذات الفردية . غير ملاينة ولا مهادنة . وهي من اكبر البواعث على نفض دثار الخمول وتكوين صفات النبل والكرامة »

والدفاع عن المسئولية هو دفاع عن الحرية . وليست توجد حرية الا وفيها مسئولية كما ليست توجد مسئولية بدون حرية . ولو كان شبابنا يفعل فعل مي وبدلا من أن يطلب الحرية الدستورية أو الحرية النسائية أو غيرها يطلب المسئولية الدستورية أو المسئولية النسائية لما وجد الجامدون منفذاً في حصن المجددين . فالحرية في نظر من يفهمونها ويدافعون عنها هي المسئولية وليس يخشاها الا من يخشى المسئولية . لان الانسان اذا الف القيد والسياج ارتاح اليهما فكانا له سنداً يأمن به الغوائل . أما الانطلاق في فسحة الحرية فلا يطيقه الا الاقوياء . ورجال الصحافة عندنا يعرفون قيمة المسئولية التي تستتبعها الحرية فقد كانوا ايام الاحكام العرفية والرقيب يقرأ صحفهم يستكينون الى هذا القيد ولا يحسبون حساباً للمسئولية فلما رفعت عن الصحف الرقابة

وعادت اليهم حريتهم شعروا جميعهم بالمسئولية فشدت من أعصابهم ونبهت من أذهانهم

فاذا كنا نطالب مع مي زيادة مسئولية نسائنا وزيادة مسئولية شبابنا وزيادة مسئولية صحفنا فاننا ننال ما نبتغيه من الحرية دون اسمها

وهناك أسف واحد يعتري الانسان كلما قرأ كتاباً لمي . وهو أسف شبيه بالغبطة . فاننا نغبطها جميعاً لذكائها وسعة ثقافتها ونود لو نجد عدداً كبيراً من فتيات سوريا ومصر يقتفين أثرها في خدمة الحياة القومية العربية والعمل على رقيها ورفعها . ولسنا نطمع في أن نجد من تساويها ولكننا نود أن نجد من تدانيها . ولعل بعض المسئولية في ذلك تلقى على عاتقها . فان واجب الاديب لا يقتصر على التنوير والافادة وانما يعدو ذلك الى ايجاد القدوة يقتدي بها الناشئ ويحمل الى الخلف ذلك المصباح المقدس يزيد ضوءاً على ضوء كلما مر به جيل

سلامه موسى

فهرس

صفحة	
١	اليقظة
٩	حياة اللغات وموتها
	اللغة والحضارة
١١	« عند اليونان
١٦	« عند اللاتين
٢٢	« عند العرب
٣٣	« لماذا تبقى العربية حية ؟
٣٧	والمجمع اللغوي ؟
٣٩	« الاجبشن ميل » تضحك
٤١	ما زلنا في الموضوع
٤٦	« الاجبشن ميل » تناقش
٦٢	فلان « ومدامته »
٦٧	اجوبة الامتحان
٧٥	النشيد القومي المصري
٨١	محروسة !

صفحة	
٨٥	الحياة أمامك
٨٦	تكلموا لغتكم !
٨٩	رسالة وحاشية
	نقد الكتب
٩٣	الرأي العام في عهد محمد علي باشا
٩٦	الشعر القصصي الحماسي
١٠٧	حديث عن الشرق الاقصى
١١٨	أمبراطور يصير ملكا
١٢١	في عالم الالحان
١٣١	معرض الصور المصري
١٤٣	لبيك ، يا مسيو فانبير !
١٦٢	زواج الشرقيين بالغربيات
١٦٦	نهضة الشرق العربي
	وموقفه بازاء الغرب

اليقظة

فليحي الاستقلال التام !

فلتحي الحرية !

فلتعش مصر حرة مستقلة !

فليحي الوطن !

انتبهنا يوماً على وقع هـذه الاهازيج غير المألوفة التي سرعان ما اهتدت الى مصبّها في القلوب . كالماء يفيض فيتدفق على منحدر هُيِّء له منذ أجل مديد

الأفواج ، افواج المتظاهرين ، تتقاطر من كل صوب . والأعلام التي طال عليهـا العهدُ في الحقائب تخفق فوق الرؤوس خفوق الألوية المنتصرة . وهتاف المئات والألوف ينتظم متجمعاً في نبرة واحدة وقياس واحد ، كأنهُ من صوتٍ واحد ينطلق . والأصداء الشائعة يصدمها هنا وهناك ترجيعُ المواكب الجائبـة انحاء المدينة في هرج وتهليل . والجوّ يدوي بارتطام الاصوات ، وقرع الطبول ، وعزف لآلات ، وزغردة النساء بين الهتاف والتصفيق

وتمشت روحُ النشوة الى الضيف والنزيل فأذابت ما بين

الاجناس والشعوب والمذاهب من جليد ، وألغت حاسة التفرق وسوء التفاهم ضامّة النفوس كما في اعتناق من التعاطف وحسن الوئام

لمن يهتف الاجانب ؟ وأي الالوية ينشرون ؟ وعلام تنثر أياديهم الرياحين وفرائد العطور ؟

أتراهم يحتفون بعيد الوطنية الشاملة لظهور طلائع الوطنية عند شعب يستفيق فتحييه حتى جنودُ الانجليز وضباطهم بالاشارة والتلويح ، ويحييه الجميع بالاصوات والالوان والازهار ؟

نعم . في ذلك اليوم من أواسط شهر مارس سنة ١٩١٩ وقد عبق الهواء ببشائر الربيع ، ونوّرت البراعم الزهية على الغصون ، وسَرت في الاجساد نفحة التجديد كرسول من حياة الارواح ، ـ في ذلك اليوم الغني بتنبهِ الارض بعد هجود الشتاء استيقظت أمة الوادي الجاثم بين البحر والصحراء

استيقظت الأمة وهتفتْ . فاذا في صوتها غضبة الاسود ، ومفاداة الابطال ، وعزم الرجال ، ومرح الاطفال ، وحنو النساء ، وصدق الشهام

***

وتصرّمت ايام الفرح والهنـاء بعد أيام الاحتجاج والمطالبة ، فسارت الجماهير وراء نعوش الموتى . سارت كاسفة لدى زوال صور الحياة ، متهيبة حيال جلال الموت . لا ان العاطفة المستجدّة ظلت تجيش وتطمى حيناً بعـد حين . وبصوت المفجوع الذي تزكي منه التضحيةُ الحمية ، تهتف الجماهير وراء الاعلام المنكسة :

فليحي الوطن !

فلتحي مصر !

فليحيى ذكر شهداء الحرية !

يا للرعشة العجيبة تعرو النفس لنداء الحماس والاستبسال! ان القلب عنده جازعٌ والطرف دامع ، أمام مشاهد الفوز ووراء نعوش الضحايا على السواء

وكأني خلال الالفاظ المتكررة في الفضاء المجوف ، سمعتُ مصر الفتاة تقول :

لقد كنتَ ، أيها القطر ، مسرحاً خالياً منذ أجل طويل ، مسرحاً زيناتهُ هذه السماء الزرقاء وهذه الصحراء العفراء وهذا الليل الناعم السحيق المغري الى تلمس الاسرار وهذه الشمس المشرقة أبداً كمجدٍ لا ينقضي وهذه الهياكل ، وما انتصب فيها واضطجع والتوى

وهذه التماثيل الشواخص للذين عاشوا ولن يموتوا من آلهتي وعظمائي

وهـذه الآثار التي تركها الزمان الوثاب أوعيةً كبيرة تدخر احلاماً لا تدرك ورؤى لا تمس

ونيلي هـذا، شاهد العصور المتابع سيره بلا انقطاع ولا ملل

كلكِ، يا هـذه الاجواء والمروج والبقايا والامواه، انما كنتِ مسرحاً خالياً ينتظر

لقد مللتِ شلال الذراري المتلاحقة في ربوعك صامتة خانعة تجهل اسم الامل والقنوط

وانتظرتِ طويلاً طويلا ـ انتظرت صوتاً يليق بعلواء تاريخكِ العظيم

وها قد آن الاوان فهيبتُ فاسمعي !

اسمعي صوتي يخاطب الرعاة بين النخيل، والكهان في الهياكل، والفراعنة والبطالمة في البلاطات والقصور

يخاطب الغزاة والفاتحين من عتاة العهد القديم والعهد الجديد،

قائلاً ان كل ما حلّ بي من نكبات وعلل أخرسني حيناً ولكنه لم ينل من حيويتي!

لقد استيقظتُ ، أيتها الامم ، استيقظ الشعبُ الصريع المستعبَد !

استيقظ وأرسل كلمته الاولى :

كلمةً اسنى من الربيع ، وأبقى من الارض ، ترنّ في قلبي فازيد وثوقاً بما أريد وابتغي

كلمة هي تتمة للماضي ، وعهد للمستقبل . كلمة هي المنبه ، والغاية ، والوسيلة

كلمة عميقة رحيبة كالحياة : الحرية !

* * *

ما هي الوطنية ؟ كيف تشب فجأةً فتغزو القلوب وتثير فيها جنون العواطف ، وتنمي في جوانبها نبتة التأمل والتبصر والارادة ؟

في مواكب الحماسة تسير المخدرات سافرات . وفي الالوية تتلاثم الأهلة والصلبان . ويتحاذى من الجمهور الرفيع والوضيع والوطني والاجنبي ، ممثلين جميعاً امكان التآخي بين بني الانسان في التفاهم العام واعطاء كل ذي حق حقه

واستيقظتْ شخصيتي الشرقية بفعل ذلك التأثير . وكما يحملنا أحياناً سحر الانغام الى بقاع مجهولة ، سارت تلك الشخصية الى أقاليم بعيدة وراء مترامي القفار

اجتازت فلوات الظمأ والخوف والوحشة والسراب والسكون . ومرّت بأبناء المشرق في أوطانهم في المدن والعواصم ، في السواحل والجبال والاودية ، عند القبائل المقيمة وعند العرب الرحل

مرّت تصيح في كل قوم : وأنتم ما حالكم يا أبناء الشمس ؟ أما سمعتم قعقعة القيود المتكسرة في الوادي الاخضر ؟ لقد تحطمت القيود الدهرية وأخذت تتساقط على وقع أناشيد الحرية . شعب الوادي يهتف ويثبت حقه على الحياة والحرية ، ألا فاصغوا الى صوته فقد ملأ المروج والبحار ! واطلقوا أصواتكم من حناجرها فقد انقضى وقت الرقاد !

* * *

أيها الشرق !

يا شرقي الكبير الرهيب الرؤوف ،

يا شرق الطرب والحميا والنخوة والشدة العاصفة كريح السموم !

انك لتتجمع تحت نظري كلوحة مصورة . فارى منك الفقر ، والجهل ، والاضطراب ، والاحتدام ، والانفعال . ليس فيك فيض الثروة ومعجزات الحضارة . ربوعك خالية

مما لدى الاقوياء من صروح ومعاهد ومصارف ومعامل . ربوعك خالية من المتاحف والخزائن والودائع المجلوبة من قصي الانحاء . انك جاهل فقير مفكك الاوصال

ورغم ذلك فأملي بك عظيم كالحياة والحرية !

أي قوة هذه التي تشدُّ وثاقي اليك ؟

لماذا أهوى من لغتكَ الشدو الشجي النوّاح ، والنبرة السريعة الحادة ، والهتاف الأبيّ الحار ؟ ماذا تلمس فيّ هذه اللغة العربية التي تنثرها شعوبك في مجاهل القفار ، وعلى الجبال والهضاب ، وعلى سواحلك وانهارك وجداولك ، ووراء القطعان في مروجك ، وقرب انين نواعيرك ؟

أية وديعة لها عندي حتى تثير لهجاتها فيّ البكاء الحنون ـ كبكاء اللقاء بعد فراق طويل

طويتكَ الواسعة الخفية تستهويني، ايها الشرق، وتأسرني أنا الذرة الصغيرة بين ملايين الملايين من ذراتك . وتمرج فيّ كل كيانك بصحاراه ورياضه ، بشواهقه وشواجنه ، ببداهته وعجزه ، بفضائله ونقائصه وبالقلوب المضطرمة فيه والنوايا الخالصة بين ابنائه

ألا نظرةَ الى هذه السماء المخيمة عليك ببهاء العسجد واللجين والارجوان !

انهـا الجوّ الوحيـد الذي أظلّ الرسل ، وما رضيت النبوات أن تنزل في غير هوائه

انك ، أيها الشرق ، اصطُفيت لتكون أرض الابطال ومنشأ الجبابرة

لقد حقّت لك الراحة ثلاثة قرون بعد ازدهار عشرات القرون . لقد حق لمدّك السّني المحسن ان يجاري ناموس الكون فيتخاذل في جزر محتوم . ولكن ها قد آن ان ترتفع موجتك الجديدة وتمتد : ها قد جاء وقت النهوض : فالى النهوض رغم النوائب والمثبطات ! الى النهوض !

حولك الاقوياء يتكافحون ويجاهدون ويغنمون . وهم رغم ذلك يئنون في الظلام : « هناك فجر منتظر لم يلح بعد ! »

وكيف يلوح الفجر قبل ان يستنير المشرق ؟

أنت برج الفجر ، أيها الشرق ، أنت مزجي الاشعة !

فقم واعمل ! قم وارقب من أي أنحائك يلوح مشعل الضياء !

حياة اللغات وموتها

ولماذا تبقى العربية حيَّة

(١)

اللغة والحضارة

الشعوب كالبحار : لهذه مدٌّ وجزر ولتلك ارتفاع وهبوط

للبحار موجات يأتين لاطمات الشاطىء بتجمُّع مياههن ثم يغرن في صدر موجات متهجمات . وللشعوب مدنيات تنمو فتعلو الى ذروة المجد والسؤدد ثم تهبط الى منحدر الوهن والنسيان متخلية عما لديها من نظام وقوة وخبرة لمدنيات جديدات تحلُّ محلها

ما هو الداعي الى هذا التموج الدائم في مناطق المجهود البشري حتى تهلك عنده أشواطُ المدنية واحداً بعد آخر ؟ وما هي العوامل التي تجعلُ زاهر الامس اليوم يابساً ، وخصيب اليوم قاحطاً غداً ؟

لقد درس هذه المسئلة الخطيرة علماء التاريخ والآثار

والعمران ففصّلوا لذلك الاسباب ووضعوا لتعايله المؤلفات الكبيرة . الاّ ان ابحاثهم لا تفيد في تلافي المحتوم على كل مدنية بلغت شأوها المنطّق ثم خضعت في هبوطها، كما في ارتقائها، لناموس التموّج الدائم . وليس في وسع المتأمل المخلص الا اثبات ما قد تتابع وقوعهُ منذ فجر التاريخ : وهو أن الشعوب تخلف الشعوب ، والمدنيات تعقب لمدنيات ، وانهُ في دوران الاحقاب لا بد أن يمسي الجديدُ قديماً وأن ينقلب القديمُ يوماً جديداً

كذلك تنتشر لغةُ قوم بانتشار حضارتهم فيسارع المغلوبُ الى تعلمها واتقانها ما استطاع . حتى اذا انحطت تلك الحضارة عاد ينكمشُ انتشار لغتها ودخلت مع الزمن في صف اللغات الميتة

ان هذا المقدور تفذ في جميع اللغات القديمة حتى التي يتصل عهدها بعهد اللغة العربية . لقد ارتفعت اليونانية واللاتينية بارتفاع مدنيتيهما وهبطتا معهما أو بعدهما بزمن يسير . فلماذا خرجت اللغة العربية من حكم ذلك المقدور ، فظلت حية كل هذه القرون الطوال بعد تشتتِ دُولِ الفتوح واندثار العظمة العربية ؟

(٢)

عند اليونان

تاريخ بلاد الاغريق هو الفصل الاول من تاريخ المدنية الحديثة . ومنه استمدّت أوربا مبادىء العلم والفلسفة والآداب . وما كانت تتمع بهِ المدن اليونانيـة من حرية واستقلال مثلٌ أعلى يتطلع اليـهِ المفكرون والمصلحون ، وتنشدهُ الحكومات الحديثة الحرّة . ذلك لأن اليونان بدأوا بحل المشاكل الفلسفية والعمرانية ومعالجة بعض القضايا العامية التي تضطرب لها اجيالنا

مرّت عصورٌ لم يكونوا فيها الاّ منفعلين بحضارة الكلدان والمصريين والسوريين اذ كانت شواطىء النيل والفرات منذ زمن بعيد محطّ مدنيات قد وصلت الى أوج العظمة والاقتدار . لكن جاء يوم قاموا يناهضون تأثير الفينيقيين فيهم ليفسحوا المجال لمدنيتهم القوميـة . فارتقوا ارتقاء باهراً وبسطوا سلطانهم على شواطىء البحر المتوسط . وبينا جيوشهم تنشر أعلامهم على بلاد يفتحونهـا ويستعمرونها ، كان أهلُ البلاد اليونانية يعيشون عيشة هنيئة مستمتعين بما

وضعتهُ جمهوريآتهم من النظامات الديموقراطية والاستقلال القومي

ولما ان قام الفرسُ يهددون بلادهم الاوربية ، بعد فتح الاسيوية ، نهضت أثينا واسبارطة لردِ غارات المغيرين وأصبحت اثينا عاصمة المدنية اليونانية منذ القرن الخامس قبل الميلاد

غير أن منافسة اسبارطة لها ولدت بينهما الحرب البيلوبونيزية [1] الشهيرة التي انتهت بانكسار اثينا . ثم قامت طيبة تزاحم اسبارطة . وهذه الحروب المتوالية اضعفت المدن اليونانية ونالت من تضامنها واستقلالها ، فسطا عليها فيلبس المكدوني وأخضعها لسلطانهِ . واجتاح ولدهُ الاسكندر مملكة الفرس عدوة اليونان فضمها الى مملكتهِ الواسعة . الاَّ ان الاغريق انقسموا بعضهم على بعض بعد موت الاسكندر فاستنجد الايتوليون بالرومان فكان ذلك أول النهاية ، وصارت بلاد اليونان اقليما لاتينياً منذ عام ١٤٦ قبل الميلاد

* * *

(١) Peloponnesian War — هي الحرب التي دامت بين اثينا واسبارطة من سنة ٤٣١ الى ٤٠٤ قبل الميلاد وكانت نتيجتها تغلب اسبارطة على اثينا

اما اللغة اليونانية ففرع من طائفة اللغات الهندية الاوربيـة كلغـات الفرس والهنـد وارمينيـا وليتونيا والقلت والجرمان والسـلاف . وقـد استعملت أولاً في بلاد الاغريق الاوربية ثم امتدت الى شواطىء آسيا الصغرى ، والى الجزر التي كانت تأتيها السفن للاستراحة في رحلاتها بين القارتين الاسيوية والاوربية . ولما تعددت مستعمرات اليونان على شاطىء البحر المتوسط انتشرت لغتهم فاصبحت لغة ايطاليا الجنوبية ، واكثر جهات صقلية ، وبلغت قارة افريقيا يوم شادوا قيرين ، وبلاد غاليا يوم بنوا مرسيليا

اللغة اليونانيـة الاولى من أوفر اللغـات ثروةً تتجلى الفصاحة في رناتها الرقيقة ، والفاظها الانيقة ، وأساليبها الفخمة. وقد اكسبها تنوُّع تشكيلها وتحريك منطوقها رخامة في مقاطع الاصوات ، وموسيقى لفظية في التعبير عن الافكار والعواطف . وقد فازت بما لم تفز به اللغـات الاخرى وهو أن لها مفردات خاصة باللغة الشعرية ومثلها للغة النثرية . وقد كتب بها بعد المتقدمين المدعوين « بالمدرسيين » ، علماء العهد الاسكندراني ، وآباء الكنيسة الشرقية ، وادباء بيزنطية منذ ملك يوستنيانس الى فتح

ولقد تلقينا ما ثر اليونان في الفلسفة والفن والادب عن طريق هذه اللغة . فيها نشأ الشعر القصصى الحماسي (Epic) بأشعار هوميرس الاياذة والاوديسا ، وقصائد هيزيوذس . وبرز الشعر الغنائي (Lyrice) ذو الوسمة الدينية أو السياسية أو الرثائية ، مع صولون وسافو واناكريون وغيرهم . ولما جاء العصر الشهير المدعو بعصر بركلس [1] سما النتاج الفكري الى درجة الاتقان العظيم في الروايات المفجعة مع اسخيلوس وصوفوقليس واوريبيذس ، والروايات الهزلية مع ارستوفانس ، والتاريخ مع هيرودوتس وثوسيديدس وزينفون ، والفلسفة مع افلاطون وارسطو ، والبلاغة مع خطباء الاطيقيين . هؤلاء وغيرهم جعلوا الآداب اليونانية آيات ينسخ عنها الناسخون

وبدا الفن بجماله الساذج الأنيق سواء في هندسة البناء والنحت والرسم

---

(١) Pericles هو خطيب وسياسي اثيني وكان رئيساً للحزب الديمقراطي . فاصلح البحرية وتابع الفتوحات وحصن اثينا وشاد البرثينون وقد نشط الفنون والاداب حتى استحق ان يسمى باسمه أعظم عصر عرفته بلاد اليونان في ارتقائها (٤٩٩ ـ ٤٢٩ قبل الميلاد)

ظل الادب والفن في تلك المنزلة الى القرن الرابع الا انهما فقدا عندئذ قوة الابداع والبداهة . فكان الرسامون والنحاتون قاصرين على نسخ التماثيل القديمة . وصار الشعراء يحتذون هوميرس وامثاله . غير ان الفلسفة لبثت تتألق في سماء مجدها مع الرواقيين ، والابيقوريين ، والمشائين ، والمرتابين ، وانصار الافلاطونية الجديدة . كذلك كانت علوم التاريخ واللغة في ازدهار

* * *

اخضع اللاتين اليونان فاعطاهم هؤلاء مدنيتهم الفريدة ، وباحتكاك الفكرين لطف الفكر اللاتيني وسما سموًّا عظيما . ثم انشطر العالم الروماني الى شطرين : عاصمة أحدهما روما ، وعاصمة الآخر بيزنطية[1] وقد زاد الاختلاف الديني في هذا التباعد . فمن الناحية الواحدة اليونان وتلاميذهم السلاف . ومن الناحية الأخرى اللاتين وتلاميذهم الجرمان والانجلوقلتيين . ولم تتلاش اللغة اليونانية تماماً بعد سقوط بيزنطية ، بل ظل شعب الاقاليم يتكلم خلال القرون الوسطى لغة اصطلاحية مشتقة من اليونانية القديمة ومن تلك اللغة الاصطلاحية استخرجت اليونانية الحديثة

(١) اسم الاستانة قبل أن يطلق عليها اسم القسطنطينية

اما اليونانية القديمة فقد دخلت في عداد اللغات الميتة منذ زمن طويل ، ولا يعنى اليوم بدرسها الا بعض العلماء ، ويدرس مبادئها بعض الطلبة في الجامعات الكبرى . وقد قلّ الذين يجيدونها بين الاكليروس اليوناني على استعمالها في الطقوس الدينية

(٣)

عند الرومان

يبتدئ التاريخ الروماني بدور هو أقرب الى الاساطير المبتدعة منه الى الحقائق التاريخية الراهنة . ويخمن المؤرخون تتابع ملوك سبعة ملكوا في خلاله من عام ٧٥٤ (؟) الى عام ٥١٠ قبل الميلاد . وفي ٥١٠ اعلنت الجمهورية في روما وقد أدّى ذلك بالامة الى ايجاد نظامات جديدة كالقنصلية ، والتشريع ، واضافتها الى ما كان عندها من نظامات سابقة كطبقة الاشراف وامتيازاتها ، وجمعية المقاطعات ، ومجلس الشيوخ الخ . وعقب الانقلاب منازعة طويلة بين الاشراف والعوام لم تنتهِ الا بفتح أبواب التشريع للشعب

ولما اتحدت كلمة روما وملكت أمرها في الداخل، كبرت مطامعها في الاستيلاء على انحاء جديدة. ففتحت جميع جهات ايطاليا وزحفت الى الشرق فهدمت قرطاجنة العظيمة. وحوّلت بلاد الاغريق الى اقليم لاتيني، غير انها رحبت بالنفوذ الفكري من هؤلاء الاغريق الذين كان سيفها قد غزاهم. ولما عادت المنازعات الداخلية تبلبل احوال الجمهورية تولى اكتافيوس إدارة شؤون الدولة فاصبح سيد العالم القديم، ونودي به امبراطوراً باسم «أغسطس» يجمع في يده كل اقتدار وسلطة وتشريع

ثم انتقل الصولجان الى القياصرة. ورغم ما تخلل ايام حكمهم من ثورات عسكرية، فقد أصبحت روما بعد اخضاع الاغريق، عاصمة الشرق والغرب فسميت «سيدة العالم». وتكاد تنحصر عظمتها الخطيرة في القرون الاولى من عهد الامبراطورية لانها كانت حقاً عاصمة العالم اذ كانت دماغهُ المفكر، وقلبهُ الخافق، ويدهُ العاملة. وليس من مدينة أخرى، حتى ولا انطاكية والاسكندرية، لتقوى على منافستها وادعاء ما لها من الشأن والفخار

واصبحت النصرانية في عهد قسطنطين (٣٠٦ـ٣٣٧) دين روما الرسمي وقد أخّر حزم ذاك الامبراطور زمناً سقوط

المدينة العظيمة . لكنَّ الذين خلفوهُ هبطوا بها الى دركات التقهقر والاهمال . فما مرَّت فترة حتى ثلمت أسوارها حرابُ الهاجمين واندكت جدرانها أمام غارات الفاتحين

***

اللغة اللاتينية كاليونانية شعبة من شعب اللغات الهندية الاوربية . وهي التي تكلمها جنود اللاتين والمستعمرون من الرومان فحملوها الى جميع انحاء الدولة ونشروها في كل بلد فتحتهُ جيوشهم . فتولدت منها اللغات اللاتينية الجديدة (Néo latines) كالفرنساوية، والبرفنسالية ، والاسبانية ، والبرتوغالية ، والايطالية ، والرومانشية (واللادينية) ، والرومانية (Roumain) . ويظن علماء اللغات أن هناك وسيطاً بين اللاتينية الاصلية واللغات الحديثة المشتقة منها وهو اللغة الرومانية (langue romane) المحضة وهي شديدة الشبه بالفرنساوية والبروفنسالية

سبق القول ان روما قبل أن تتأثر بالمدنية الاغريقية لم تكن على شيء من الآداب اذ يتعذر اطلاق هذا الاسم على بعض الاناشيد الدينية ، والنكات المبتذلة ، وفن الايماء أو التخييل (pantomime) الذي كان يطرب لهُ اللاتين طرباً شديداً

على أن اختلاطهم باليونان بثّ فيهم الميل الى الاقتباس والاستيحاء والرغبة في ايجاد الآداب الكتابية. فكان الشعر اللاتيني في بادئ الامر يحتذي الشعر اليوناني في الاساليب والموضوعات، أو يكتفي بنقله الى اللاتينية معنىً ومبنىً

وكان المؤرخون اول الناثرين. وأشهرهم كاتو الرقيب[1] الذي وضع تاريخ أمهات المدن الايطالية. ووضع آخرون تواريخ عامة أو خاصة في الشعوب اللاتينية، وهم في الغالب يتحدون مؤرخي الاغريق في سياق الكلام وتصنيف الفصول وتبويب التآليف. وقد ظلت البلاغة اللاتينية على جفوةٍ وحوشية مدة طويلة فما ان استوحت الاغريق حتى انقلبت فناً مرناً جزلاً استمر يصقلُ ويتكامل بفعل بيانهم. وكان نظام روما السياسي ملائماً لفن الخطابة اذ كانت أساليب الكلام متوفرة للمحامين والمتشرعين

ولقد كانت بلاد اليونان مدرسة روما لأنّ شبان اللاتين العازمين على الاشتغال بالمحاماة واعتلاء المنابر كانوا يقصدون الى مدارس اليونان الكبرى لاتمام دروسهم وتثقيف مواهبهم. كما أن كثيرين من الاغريق كانوا يدرّسون

(١) Caton le Censeur سياسي ومؤرخ روماني

في روما فن الخطابة والالقاء .وتدل كتابات العهد المدعو «بعهد أغسطس» (أي آخر قرون الجمهورية) على أن المؤلفين كانوا مطلعين على أشهر مصنفات الاغريق من شعر ونثر وأنهم يقلدونهم صراحاً . وفي مقدمتهم شيشرون العظيم تلميذ اليونان في الخطابة والكتابة والفلسفة جميعاً . ومثله المؤرخون ، والشعراء على وجه خاص

لكنّ هذا لا يعني ان الآداب اللاتينية حاشية معلقة على هامش الآداب اليونانية . بل كان لها طابعها الخاص لانها كانت اكثر من تلك امتزاجاً بالاحوال العمومية واظهر لشؤون الامة . ذلك ان معظم الكتّاب من خطباء ومؤرخين وفلاسفة قاموا بأدوار سياسية فكان لعلمهم وآرائهم وخبرتهم أثر فعال في مصالح الدولة . وكفى ان يذكر منهم شيشرون ، وقيصر ، وماركس اوريليوس ، وتاشيتوس ، وبلينوس لاول ، وبلينوس الثاني ، ليثبت لنا ما تقدم . ولما كانت الآداب اللاتينية ذات اتصال بالحركة السياسية كان اللاتين جاهلين اتباع الفن لذاته الامر الذي كان رائد اليونان في معظم آدابهم وفنونهم

* * *

فن اللاتين كآدابهم منقول عن الفن الاغريقي . الا انهما يختلفان في ان الاوّل يقلد الثاني بلا امانة ثم يخلطهُ بصنوف فنية أخرى فيحرمهُ قالبه المجرد وبساطتهُ الانيقة . والزخارف القليلة التي كان يستعملها الاغريق بمنتهى التحفظ كان الرومان يغدقونها على ابنيتهم وصروحهم بلا حساب . بيد ان الآثار الرومانية اذا كانت دون الآثار اليونانية دقة وسذاجة فهي لا تعدم عظمة وجلالا يلقيان الهيب في نفوس الناظرين

وامتاز فن النحت في روما بما لم يكن ليعنى بهِ الاغريق كثيراً وهو تماثيل الاحياء . لأن من عادات الرومان قبل اتصالهم باليونان انهم كانوا يحفظون في منازلهم صور آبائهم وجدودهم . وكانت تلك الصور والتماثيل تصنع من الشمع او الخشب . ثم تحسنت بانتعاش الفن فصارت تحفر في الرخام . والرغبة في التزلف الى القياصرة وتملق الكبراء كانت تؤدي الى الاهتمام بتماثيلهم ووضعها في الابنية العمومية وصروح الحكومة . ومن هنا تعدُّد التماثيل اللاتينية والباعث على اتقانها

اما في غير ذلك فقد قال الشاعر اللاتيني : « ان بلاد الاغريق المغلوبة أغارت على قاهرها فاكتسحتهُ في دورها »

(٤)

عذر العرب

سقطت روما العظيمة فتساءل العالمُ أي شعب قدّر لهُ أن يحمل مصباح الحضارة باعثاً بأشعتهِ الى القارات الثلاث. فاذا بحركة جديدةٍ تنشأ في ارض بعيدة بين قوم جهلت اسماءهم سجلات التاريخ

قضتْ مدنيةُ الاغريق طفولتها في حضن المدنية الفينيقية. ثم دفع اليونان الاسيويين عنهم فنمت مدنيتهم وترعرعت في ارض خصيبة، جميلة الموقع، معتدلة الهواء، عذبة الماء. ثم نسخ اللاتين مدنية الاغريق مكيفيها في قالب يلائم سليقتهم ويتمشى مع روح لغتهم. وقد كانت بلادهم في منطقة تسهل لأهلها الانطلاق الى الخارج وبسط سلطانهم على ما حولهم

ولكن كيف تكونت المدنية العربية، وهي التي انبثق نورها الاول في شبهِ الجزيرة حيث تستعرُ الرمضاء ليل نهار؟

نعم ان بعض الجهات الساحلية مثل اليمن والحجاز وحضرموت كثيرة الخصب تنتج البنّ، والقطن، واللبان، والمرُّ، والندّ، والبلح، والموز، والمشمش، والحنطة،

والذرة ، والعدس ، وقصب السكر ، وشجر النارجيل (جوز الهند) وانواع الطيوب العربية على اختلافها . غير انها بعيدة عن اوساط التمدن والعمران ، بعيدة عن تأثير الاغريق ونفوذ الرومان . فايّ سرّ أوجد تلك الحضارة التي انتشرت بسرعةٍ لم تظفر بها حضارة فعبرت من قارةٍ الى قارة تحمل عزّ العرب باسطةً تمدنهم على آسيا ، وافريقيا ، وبعض اوربا . جالبة ثروة ، وعلماً ، وانتعاشاً حيثما نشر القوم اعلامهم ؟

تنتمي اللغة العربية الى طائفة اللغات السامية وهي ثالث فروع أصلية ثلاثة : الآرامية والكنعانية والعربية . فالآرامية تشمل الكلدانية والسريانية والاشورية (الميتة منذ زمن طويل) وهي لغة عامية يقال ان السيد المسيح كان يخاطب بها تلاميذهُ . وتتكون الكنعانية من العبرانية والفينيقية : فالعبرانية لغة اليهود المقدسة . ومع انها تختلف اليوم كثيراً عن العبرانية الاصلية ، فانها ما زالت مستعملة عندهم في الطقوس الدينية . ولهجة من الفينيقية (وهي البونيقية) استعملت مدة طويلة في قرطاجنة وعلى شواطىء اسبانيا ، ولها بالعبرانية قرابة لفظية شديدة

اما العربية فتشمل العربية الفصحى ولهجات مختلفة

تكلمتها القبائل القاطنة في جنوب بلاد العرب وبلاد الحبشة وغيرها . وهي اللغة التي فازت بالبقاء على حين اخواتها وبنات عمها طوين في عالم النسيان منذ امدٍ مديد

ظلت العربية منزوية الى اواسط القرن السادس فبرزت بغتة تتمتع بقوة بالغة اشدّها . فما عرف لها التاريخ ادوار الطفولة والنمو . وذلك لاينفي انها قد تكوّنت في زمن بعيد القدم ، او انها قد تكون شعبة من لغة ساميّة سابقة فُقدت في مجاهل التاريخ . لأن بعض خصائصها اللغوية (كجمع التكسير مثلا) يميزها عن العبرية والاراميـة فيجعلها أشمل منهما للمعاني وأوفى للاغراض . ومن ذا الذي لم يسمع بغناها في المفردات والمرادفات ؟ ذاك الغنى الذي يعدُ عجيباً اذا ما قوبل بفقر اللغات السامية الاخرى

بدت العربية في القرن السادس لتكون لسان الحضارة الجديدة . فانطلقت من شبه الجزيرة تنقل الى الامصار القصيـة مفرداتها ومميزاتها وجابت الاقطار ناشرة لهجاتها المختلفات من اطراف جزر الهنـد الى اواسط القارة الافريقية

* * *

لم تقمْ سطوة العرب في ايام مجدهم وعزيز

الذكر المحفوظ لهم على فوزهم الحربي فحسب ، بل الخلافة العربية مدينة بعظمتها للآداب والعلوم اكثر منها لمضاء السيف وتعدد الفتوحات

ففي القرون السبعة الاولى التي بدأت بالدعوة الى الاسلام والهجرة من المدينة (عام ٦٢٢ للميلاد) ، وامتدت الى القرن الثالث عشر ، يشهد المؤرخون لمدنية من اعظم المدنيات التي عني باثباتها تاريخ الآداب . فيها كان الشعراء والادباء والعلماء والمؤرخون والفلكيون على اختلاف طبقاتهم ونحلهم يتسابقون الى اصقاع أظلّها العلم العربي فصارت وجهة الطالب وكعبة الباحث . كانوا يذكرون حث النبي على طلب العلم ، وقوله ان الذي يسير في سبيل طلبه انما هو مسهل امامهُ طريق الجنة . يذكرون ذلك فيتقاطرون من كل الامصار من المغرب الاقصى والهند وجاوه والقوقاز وتركستان . فيقطعون البحار الواسعة ويطوون الجبال والوهاد وراء القوافل الكبرى ووجهتهم المساجد الشهيرة في مكة ودمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة . لأن الجامع لم يكن مكان الصلاة فقط بل كان (وما زال في اكثر البلاد الاسلامية) ملتقى العلماء ومجمع المتباحثين ومدرسة المتعلمين . فتقوم ثمت المناظرات في الموضوعات

السياسية واللغوية والدينية

ويجـوز القول في الذين كانوا يهتمون بتلك المناقشات اهتماماً يدفعهم الى تدوين خلاصـة ما يسمعون في صحائف يوزعونها على فريق دون آخر — يجوز القول فيهم انهم كانوا الصحافيين الأول . وقد كانت جميع احوال الدولة داعية الى اثارة هذه النهضة الفكرية . فالاحتكاك المتواصل بالشعوب الغريبـة ، وعيشة المدن الكبيرة ، وثروة الدولة المتزايدة ، ورفاهية الحيـاة الفردية الناتجة عن الفتوحات الواسعة ، كل ذلك كان دافعاً بالمدنية الادبية الى الامام

منذ القرن الثاني للهجرة اخذت تلتئم الاجتماعات العلمية في مدن الشام والعراق ، في دمشق والبصرة والكوفة على وجه خاص . فكان عهد الخليفة المنصور عهداً زاهراً تقدمت فيهِ الآداب ، وارتقت الافكار ، وترجمت المؤلفات الهندية واليونانية في الفلسفة والآداب والعلوم . فتعددت المكاتب العمومية وغصت قاعاتها بالطلاّب والمطالعين . وكان كل خليفة وكل امير يفاخر بما انشأهُ من المكاتب وبعدد ما جمعهُ من نفيس الكتب . ولما كان الخلفاء يبتاعون الكتب بوزنها ذهباً ، ويفسحون صدر مجالسهم للشعراء والعلماء ويجزلون لهم العطاء ، كان الاغنيـاء والاعيـان يقتفون

بالخلفاء ويفردون للعلم والادب مكاناً من حياتهم وحياة قومهم

ولقد عني العرب بالتاريخ عناية خاصة لانهم شعروا باحتياجهم اليه لتدوين مايقع من الحوادث في صدر الاسلام وما يلقاه الدين الجديد من المقاومة أو الترحاب . اما العلوم اللغوية فقد كان لها عندهم شأن لم يكن لعلم آخر . وسرعان ما وضعوا قواعد الصرف والنحو للغتهم الزاخرة . في حين أن الاغريق وهم مهذبو الامم الاوربية ، لم يفرغوا من وضع اصول غراماطيقهم [1] الا بعد انتقالهم الى خارج بلادهم يوم جازت حضارتهم الى وادي النيل فقامت بها عظمة الاسكندرية

وما قيل في الرومان من حيث تأثير الاغريق في مدنيتهم ينطبق على العرب بعد فتح بلاد فارس . لأن التمدن الفارسي

---

(١) الفلاسفة والمناطقة هم علماء الغراماطيق الاول عند الاغريق. منهم أفلاطون في محاورتيه مع كراتيلس و السفسطائي . وارسطو في كتابه في الخطابة . وفلاسفة الرواق . الا ان جميع هؤلاء كانوا يهتمون بفلسفة الغراماطيق اكثر من اهتمامهم بالغراماطيق نفسه . وقد دعي ارستوفانس البيزنطي ابا الغراماطيق وهو أول من استعمل الحركات في اللغة اليونانية . ولم يفرغ الاغريق من وضع جميع اصول غراماطيقهم الا في العهد البيزنطي

القديم قد صُبَّ في التمدن العربي الحديث وما كان أن امتزج بعناصر بيزنطية . ومن ذلك الخليط المختلف ، المتناقض احياناً ـ حيث تلاقت آثار مكة ، وسوريا اليهودية والمسيحية ، وبيزنطية ، وبلاد فارس وبلاد الاغريق ، (هذه فيما يتعلق بالعلوم والفلسفة فقط) نشأت مدنية سبكت في قالبٍ خاص فبدت للملأ مدنيةً قومية عربية

لم يعنَ الفن العربي بالصور والتماثيل . و النحت العربي كالرسم مقتصرٌ على تنميق الحروف الكتابيـة . انما العرب اجادوا في نوع من هندسة البناء بدأوا باقتباسه عن الفرس ثم مزجوه بخصائص بيزنطية . وقد راج ذلك الفن رواجاً عظيماً في اسبانيا فبنيت طبق أصولهِ « الحمراء » في غرناطة ، وجامع اشبيلية ومأذنتهُ الباذخة . ويمتاز البناء العربي باقواسهِ الانيقة ، وأعمدتهِ الهيفاء ، وتخريمهِ الدقيق وبزخرف كله رونق وبهاء . ومن اجل آثاره مساجد الاستانة وقرطبة ومصر

كان اليونان واللاتين قد سبقوا العرب الى غربي آسيا وشمالي افريقية . الا ان نظاماتهم وعاداتهم لم يكن لها نصيب في حياة الشعب ، ولم يقتبس بعضها الا سكان المـدن الكبرى وبقي اهل الارياف في ذلهم وبؤسهم يرتعون

لكن العرب الذين كانوا يستنكفون عيشة الحضر هبطوا الاودية الخضراء ، واستوطنوا المروج الفيحاء في جيرة الفقراء والفلاحين . وقد زاوجوهم فامتزجت المشارب واتحدت القلوب، فترك الغالب في حياة المغلوب أثراً بيناً من حيث تحسين الاحوال وتسهيل المعيشة ورفع مستوى الادراك . فان الآداب والعلوم والصناعة والثروة والامان كانت تحل أينما حلت مدنيةُ العرب . وقد كانت سوريا ومصر وشمال أفريقيا والاندلس أوساطاً سعيدة للدأب والنشاط بينما كانت اقطار اوربا في حالة اشبه بالهمجية . ويوم كان الغرب جاهلاً وجود الشرق الاقصى ، ولا يعرف من افريقيا الا بعض سواحلها القريبة ، كانت قوافل العرب وسفائنهم تحملُ تجارتهم الى الهند وجاوه والصين واواسط افريقيا والجهات القصية من اوربا كروسيا واسوج والدانمارك

عرفت اوربا العرب بفتوحاتهم الواسعة . ولم تكن لتصدق في بادىء الامر ان سكان البادية يحسنون شيئاً غير النهب والسلب والتخريب . على أنها الفت مع الزمن وجودهم في الاندلس . ولما ان رأت اسبانيا مستمتعة بعيشٍ رغيد في أمان وسلام ، أرغم أهلها على الاقرار بان العرب

بارعون في فنون السلم كما انهم متفوقون في فنون الحرب . وما تأسست جامعة قرطبة العظيمة وطارت شهرتها الى ما وراء جبال البرنات ، حتى توارد علماء الفرنجة يطلبون العلم على علماء المسلمين

ومن بين قاصديها رجل فاضل كان يدعى (Gerbrt) تلقن العلم من اساتذة العرب وذلك لم يحل دون ارتقائه كرسي البابوية الجليلة بعد سنوات باسم سلفستر الثاني . لانه كما قال روجر باكون الراهب الفرنسيسكاني وهو نابغة كبير من نوابغ القرون الوسطى، اذ اوصى في كتبه بدرس اللغة العربية: « ان الله يهب الحكمة من يشاء . فلم ير اعطاءها للاتين لذلك لم تزهر الفلسفة الا عند شعوب ثلاثة : اليهود والاغريق والعرب »

ومعلوم ان اوربا مدينة للعرب بكتب جمة نقلها اليهود من العربية الى العبرية ثم ترجمت الى اللاتينية ومنها الى اللغات الاوربية الحديثة . كما أن فلسفة ارسطو لم تصل الى علماء القرون الوسطى الاّ عن طريق العرب وبعد تراجم اربع : من اليونانية الى السريانية ، فالعربية ، فالعبرانية ، فاللاتينية

وقد نشر الاستاذ سلامه موسى في جريدة « البلاغ » المصرية مقالا عن «العلوم والحضارة ، ونصيب العرب فيها »

نقلا عن مجلة « كونكست » الانجليزية . جاء فيه « ان العلم الحقيقي دخل اوربا عن طريق العرب لا عن طريق الاغريق فقد كان الرومان أمة حربية وكان الأغريق أمة ذهنية . أما العرب فكانوا امة علمية

« فانهم غزوا ممالك الشرق مثل الهند وفارس وبابل ، وتعلموا منها كل ما استطاعت هذه البلاد ان تقدمه لهم . ولم يقتصر علمهم على الصنائع اليدوية مثل النسج والدباغة والصياغة التي اشتهر بها الشرق . ولكنهم تعلموا أيضاً جميع ما يمكن تعلمه من الهندسة والطب والميكانيكيات

« وقد أحرق البطريرك كيرلس مكتبة الاسكندرية في القرن الخامس فهجر آلاف من العلماء تلك المدينة الى فارس واستوطنوها . فلما ظهر العرب عادوا فجمعوا تلك المعارف المشتتة ، بل أضافوا اليها

« ثم انتشروا في الغرب ، وجازوا البحر الى اسبانيا حيث لا يزال شاهداً على عبقريتهم كاتدرائية قرطبة والحمراء وقد كان سكان مدينة قرطبة يزيدون عن المليون في القرن الثالث عشر . وكانت شوارعها مبلطة ومضاءة . وكان فيها ما لا يحصى من الحمامات . وكان فيها نحو مائة مستشفى عمومي . ولعل القارىء يدرك قيمة ذلك اذا عرف ان شوارع

باريس لم يوضع عليها البلاط الا في ختام القرن الخامس عشر ولم يكن في لندن في نصف القرن السادس عشر مصباح واحد في شوارعها . أما الحمامات والمستشفيات فلم تعرفهما هاتان المدينتان الا بعد قرون

« فنحن مدينون للعرب باستكشافاتهم العلمية اكثر مما نحن مدينون لهم بثقافتهم او فنونهم . فهم روّاد الزراعة العلمية والتربية العلمية للدواجن . وقد زادوا معلوماتنا عن الكيمياء ونواميس البصر ، وعرفوا حمض الكبريت وحمض النيترات . وهم الذين علمونا الحساب والجبر وأضافوا الصفر الى الأعداد الهندية التسعة . وكان الناس قبلاً يعتمدون على الهندسة في تقديراتهم ، فاخترعوا الحساب الاعشاري . وكان علماء العرب يعتمدون على المشاهدة في أبحاثهم بخلاف الاغريق فانهم كانوا يعتمدون على الفلسفة . ولكن العلم لا يرقى الا بالمشاهدة والتجارب . وقد استعمل العرب المغناطيس كما انهم استخدموا البوصلة في الملاحة » اه

كذلك أدّى العرب الى الانسانية ما على الامم الكبيرة من واجب النفع والافادة . انتشرت لغتهم وحضارتهم أبما انتشار فكانوا صلة أمينة صلة خير وضياء بين العصور الخالية والقرون الحديثة . ولما هبط الصليبيون الشرق

عادوا الى بلادهم يحملون بعض أنظمة العرب التي اطلعوا عليها في رحلتهم . فاقتبسها الاوربيون وقدروها قدرها . وعلى ذلك الاساس العربي المتين أقامت أوربا صرح مدنيتها الحديثة

(٥)

لماذا تبقى العربية حية

من هو المنبه الي تكوين هذه المدنية القومية ؟

هو فتى كان بالامس يقصد الشام في عير قريش للتجارة وهو اليوم محمد النبي العربي ورسول المسلمين

أما مصدر تلك الحضارة فهو القرآن

لقد ذاع القرآن بسرعة لم يظفر بها كتاب قبله ولا بعده . ولم يقصر انتشاره على الشعوب التي نزل بينها وتوافقت تعاليمه ومدركاتها وطبيعتها . بل خضعت له بعدئذ أمم لها من حضارتها السحيقة ما قد كان يُعدُّ كافياً للتفلّت من سطوته ورفض الاذعان لأحكامه

ولقد أوجد القرآن ديناً عربياً ، ودولة عربية ، وأحكاماً عربية ، وآداباً عربية صارت كلها أجزاء قومية واحدة ربطت شعوباً لم تكن العربية لغتها . لذلك قال جماعة من

المؤرخين ان التمدن العربي كان تمدناً اسلامياً صرفاً .

والقرآن مصدر جميع العلوم التي عني بها المسلمون في أوج حضارتهم . فلتفسير آياته وسوره وجدت علوم الكلام وعلوم المنطق . ولتفهُّم ما فيه من نظام وتشريع وُجدت علوم الشرع والفقه . ولم تكن غاية المؤرخين الاولين من العرب الا تحديد وقت نزوله وتدوين الاحاديث النبوية

ثم أليس الجغرافيون الاول أو علماء المسالك والامصار ، هم الذين مضوا من أقاصي أفريقيا وآسيا لتأدية فريضة الحج ثم عادوا يصفون رحلتهم وما رأوه في البلاد البعيدة من الجديد غير المألوف ؟ ألم يكن غرض علماء اللغة ايضاح ما غمض من آي القرآن وتطبيق قواعد الصرف والنحو على نصوصه ؟ ألم تطلب ارصاد الفلكيين وعمليات الرياضيين لتحديد ساعات الصلاة وتوقيت مواعد الحج والصوم ؟ ألم تستدع مسائل الوقاية الصحية والنظافة اهتمام الاطباء كما ظلّت بعد تحثهم على البحث والتنقيب ؟

نعم لم يهتم العرب في ذلك الدور بعلم من العلوم الاّ لان آيات القرآن قضت بمعرفته لاجتلاء معنى غامض ، أو شرح قول مستغلق . ومذاهب علماء الكلام هي التي نبهت

أبحاث الفلاسفة ومناظراتهم فكانوا بما نقلوا وما اوجدوا اساتذة الفلسفة الحديثة

سبق القول ان قد اشترك مع العربية لغتان آخريان بكونهما قوميتين نشرتا عقيدة دينية ومذهباً سياسياً بين شعوب مختلفة . أي اليونانية واللاتينية . فقد كانت اللاتينية مستعملة من كمبانيا في ايطاليا الجنوبية الى الجزر البريطانية ، ومن نهر الرين الى جبل الاطلس . واستعملت اليونانية من أقاصي صقلية الى شاطىء دجلة والفرات ، ومن البحر الأسود الى تخوم الحبشة . لكن ما أضيقهُ انتشاراً اذا ما قوبل بانتشار العربية التي امتدّت الى اسبانيا وافريقيا حتى خط الاستواء ، وجنوب آسيا وشمالها الى ما وراء بلاد التتر ؛ أما اللغة الفصحى فقد استولت على جميع انحاء الشرق الاسلامي . وان لم تكن لها الغلبة كلغة كلامية على بعض اللغات في الشرق والشمال ، فقد أوجدت تبديلاً محسوساً في الفارسية والهندية والهندستانية والتركية ولغات أفريقيا ولهجات التتر . كذلك في اللغات الحديثة المشتقة من اللاتينية أو المقتبسات منها ، كلمات كثيرة ذات أصلٍ عربيّ

لقد عُدّت اليونانية واللاتينية في صف اللغات الميتة

منذ سقوط مدنيتاهما . فما الذي حفظ العربية حية بعد زوال مدنية العرب بقرون سبعة ؟

ان الذي كان باعثاً على تكوين المدنيـة العربية هو هو الذي ما زال حافظها الى اليوم : هو القرآن

لذلك ستظل اللغة العربية حية ما دام الاسلام حياً وما دام في أنحاء المسكونة ثلاثمائة مليون من البشر يضعون يدهم على القرآن حين يقسمون

والمجمع اللغوي؟

نعلم أن المجمع اللغوي كان يلتئم كل اسبوعين اثنين في دار الكتب المصرية بدعوة من المدير السابق . وان هذه الجلسات ظلت تنعقد في الشتاء الماضي حتى جاء الصيف ولفحت لواحه . فانحلّ المجمع وانطلق «يصطاف» في اشخاص اعضائه الموقرين ، على الشاطئ ذي النسيمات العليلات

ولما انكسرت شوكةُ الحر ورجع الناس من مصايفهم عاد المجمع الى الالتئام في دار الكتب ، وكلٌّ من لجانه تشتغل على حدة لعرض خلاصة أبحاثها على هيئة المجمع . لكن ما كان ان استقال الاستاذ لطفي بك من ادارة المكتبة . وقد مرَّ على هذه الاستقالة شهرٌ دون أن يلتئم المجمعُ ودون أن نقرأ عنه في الصحف شيئاً

فأي خطب دهاهُ ؟

يتحمس الناس عندنا لمسألة في بادئ الأمر تحمساً أحسن ما يقال في تعريفه أن الفرنجة ينعتونه « بالشرقي » . حتى اذا ابتعد موجد الفكرة وواضع اسها عن ميدان العمل لسبب من الاسباب ، هبط المشروع وتفككت اجزاؤه .

كأن لا قيمة للفكرة نفسها ولا اهمية لها الا بأهمية مروّجها ودوام حضوره . في حين ينبغي أن تكون قيمة الرجل من قيمة مشروعه ، وأن يكون حضوره وغيابه سيان من حيث التأثير في العمل لأنه يظل في اطّراد على كل حال

فاذا كان لطفي بك موجد فكرة المجمع والداعي الى عقد جلساته قد ترك ادارة المكتبة للاندماج في الوفد المصري فأي علاقة للمجمع بذلك ؟ لم يكن للمجمع اللغوي صبغة رسمية ، ولا كان للحكومة تدخل في شؤونه ، رغم ان اجتماعاته كانت تعقد في دار تابعة لوزارة المعارف . فما دام متمتعاً بالحرية التامة ، ترى لماذا لا يتفق الاعضاء المحترمون فيما بينهم على الاجتماع في مكتبة احمد زكي باشا مثلا ، أو في منزل أي عضو من الاعضاء الآخرين ، وكلهم من اهل الجاه كما انهم أهلُ علم وفضل ؟

لماذا لا يتفقون على ذلك فلا يدعون هذا المشروع يغرق في الماء أو يطير في الهواء كأكثر مشروعاتنا الشرقية ؟ (١)

(١) كتبت هذه المقالة والمناقشة التالية لجريدة « الاجبشن ميل » بتوقيع « خالد رأفت » وهو اسم مستعار بدلاً من « مي »

« الاجبشن ميل » تضحك

استهلت جريدة « الاجبشن ميل » الانجليزية هذه السنة المباركة بضحكة مطبوعة ذات عنوانين انيقين يزينان العمود الخامس في الصفحة الاولى من عددها الصادر صباح أول يناير سنة ١٩١٩ . لقد أضحكها ما قلتُ عن المجمع اللغوي فترجمتهُ الى الانجليزية تحت هذا العنوان : « اعمال « الخالدين » في مصر » . ونشرت مقدمة وجيزة قالت فيها ان « تهاون أعضاء المجمع يترك اللغة العربية ملوثة بالالفاظ الغريبة . مثل بوستة وبيسكليت وتراموي وغيرها من الكلمات التي تشوب صفاء اللغة »

ثم عادت فنقلت كلام « الاخبار » في تصريح فضيلة شيخ الجامع الازهر ورئيس المجمع اللغوي بان جلسات المجمع ستعود الى الانعقاد ، وانهم (أي الاعضاء) يبذلون جهدهم في ايجاد الفاظ عربية للمسميات الافرنجية

هذا التصريح اثبتته « الاجبشن ميل » بالحرف دون أن تعلق عليه بكلمة ، إلا انها جعلت له هذا العنوان الضخم الذي ينمّ عن بسمة الازدراء وراء لهجة الجد : « جهد

المجمع الجهيد » . وهي تعني بذلك كلام الاستاذ الأكبر القائل : « اننا اجهدنا النفس كثيراً في سبيل اطلاق اسماء عربية على كثير من الآلات الزراعية وفي سبيل وضع تعبيرات عربية صحيحة بدلاً من عديد الاصطلاحات المتداولة »

لا لوم على الصحيفة الانجليزية . ولكن أتتفضل فتقول لنا لماذا هي تنظر الى هذا المشروع بعين المرتاب في نجاحه ، القائل ان لا ضرورة لهذا المجمع ولا فائدة من أعماله ؟

والاّ فما الذي يضحكها يا ترى ؟

لماذا لا يجوز للمجمع اللغوي ولكل كاتب عربي أن يؤثر استعمال الفاظ عربية دون التعبيرات الافرنجية ؟ أليست الحال كذلك عند جميع الشعوب ؟

ولو اقتصرنا على لغتها دون غيرها ألا تذكر « الاجبشن ميل » ان الانجليز أنفسهم يفضلون الكلمة السكسونية الاصل على الكلمة اللاتينية ؟ وان كبار كتابهم اذا وجدوا أمامهم كلمتين اثنتين تؤديان المعنى تماماً احداهما سكسونية والاخرى لاتينية سارعوا الى استعمال الكلمة الاولى لأنهم يرونها أفصح وأبلغ ؟

فلماذا ينكر علينا ما هو في نظرهم عين البلاغة وكل الحق ؟

ما زلنا في الموضوع

يظهر ان اخواننا السوريين سواء في الوطن والمهجر قد وصلوا الى دور انشاء الروابط وتأليف المجامع . ففي نيويرك « الرابطة القلمية » ، وفي دمشق « الرابطة الادبية » ، وفي بيروت « المجمع العلمي » . وكلها خطوات صالحات ننظر اليها نظرة الرضى والاستحسان . ان لمثل هذه المجامع تأثيراً في اللغة من حيث التنقية والصقل ، فضلاً عن الانعاش والتنشيط

عندما أقرأ الكثير مما يكتب في هذه الايام أقف حائرة وبي استفهام ما عسى يكون حكم الاجيال المقبلة علينا ؟ اني أشعر في اكثر مطالعاتي العربية باني في ماضي اللغة العربية أو في مستقبلها . في ماضيها مع المحافظين الجامدين ، وفي مستقبلها مع المتهورين المجازفين

ولكن أين نحن من حاضرها وما اسم اليوم الذي نحن فيه ؟ ان السير على الاساليب العتيقة وتقييد الفكر بالاستعارات المتحجرة ، من جهة . والمجازفة في اعتناق كل جديد دون بحث ولا تمحيص من جهة أخرى ،

يوقفاننا في موقف الحيرة والقلق ويجردان أدبنا العصري من طابع تطبع به الآداب عادة في كل دور من أدوارها

ولئن حق الانتقاد على دعاة الاسلوب العتيق الذين كأنهم ينكرون نهم ولدوا بعد أولئك القدماء بعصور، فليس ثمة ما يسوغ افساد اشتقاق اللغة وتصريفها والتساهل في قواعدها أو القضاء على روحها

انما الغرض من اللغة أن تكون آلة صحيحة لاظهار ما يراد اظهاره من فكر وعاطفة وبيان. انما الغاية منها ايصال المعنى الذي وضعت لاجله. والتردد في التعبير كثيراً ما يكون تردداً في ما وراءه من مادة فكرية وانشائية. فاذا وصلت اقلية راقية الى الكمال النسبي فكراً وتعبيراً، وتيسر لها أن تكون ذات أثر في بيئتها، قامت تحتذيها خاصة المتعلمين فاحتضنت أساليبها وتعلمت منها البحث عن أساليب جديدة

وهذه الاقلية تؤثر بدورها في غيرها. فيظل تفاعل الفكر واللغة في اطراد لمصلحتهما معاً. لأن هذا التفاعل أي تهذيب الفكر عن طريق التعبير، وتهذيب التعبير عن طريق الفكر، عامل أولي في تكوين آداب الاقوام

وتطورها بمقتضى ما يحيط بها من الاحوال ، وما يستحثها ويوحي اليها من المؤثرات

* * *

ولكن لماذا دعوا مجمع بيروت « المجمع العلمي » ؟ أليس انه تألف للبحث في شؤون اللغة والنهوض بالآداب العصرية ؟ فما « للعلم » وله والحالة هذه ؟

أعرفُ اننا اعتدنا اطلاق هذه الكلمة على علم اللغة ، كما نسمي العارف بأصوله « عالماً » . فعندنا في مصر مئات (ولماذا لا أقول ألوف ؟) « العلماء » في اللغة والفقه ، الحائزين لشهادة « العالمية » من الازهر أو من مدرسة القضاء الشرعي . ولكنهم ليسوا « علماء » بالعلوم الرياضية والطبيعية الخ . غير أنهم يتبعون نظاماً معيناً في ألقابهم وفي دراستهم جميعاً

أما المجامع التي تؤلَّف في هذه الايام ، وتُسنّ لها القوانين على الطراز الحديث ، فعليها أن تسمي الاشياء باسمائها دون ابهام ولا إشكال

* * *

في القاهرة مجمع يدعى « المجمع العلمي المصري » أنشأته الحملة التي صحبت نابوليون من الاختصاصيين في مختلف

العلوم . وأعضاؤه اليوم خليط من وطنيين وأجانب وكلهم من صفوة العلماء في هذه الديار . يتطارحون في قاعته المحاضرات العلمية النفيسة . ثم « الجمعية الجغرافية » ومحاضراتها تبحث في حدود البلدان وطبيعتها وأخلاق أهاليها وعاداتهم . كذلك جمعية « الاقتصاد السياسي والاحصاء والتشريع » تعنى بما ينطبق على اسمها ويدخل في دائرتها

أما المجمع الذي كان قصده كقصد المجمع البيروتي فكان يدعى « المجمع اللغوي » . ومن اعضائه الدكتور صروف واحمد زكي باشا والاب لامنس اليسوعي والمغفور لهما شيخ الازهر السابق وحفني بك ناصف . وقد دعى إلى انشائه احمد لطفي بك السيد يوم كان مديراً لدار الكتب

لقد كان لطفي بك عاملاً كبيراً في تكوين النزعة المصرية الحديثة . وكان له في « الجريدة » أبحاث خطيرة اجتماعية وقانونية وسياسية وفلسفية وأدبية . وقد عني باللغة عناية خاصة . ومن رأيه ادخال اصطلاحات المعاملات وما حسن من الالفاظ العامية في لغة الكتابة ، وقبول كل لفظة أجنبية ليس لها مقابل في العربية لتسمية الادوات

والآلات وتعريف المشاعر النفسية الخ

* * *

عقد المجمع جلساته الاولى في دار الكتب وبدأ أعماله بتعيين لجان تبحث في الشؤون التي عهد بها اليها . فهذه تبحث عن الاصطلاحات العلمية ، وتلك عن الاصطلاحات الفلسفية ، وتعنى غيرها بالمسميات السيكولوجية الخ . وقد رأيتُ قائمة حسنة « لمصطلحات علوم الفلسفة الحديثة » قدّمت الى المجمع من أحد أعضائه امين بك واصف . ثم جاءت الحركة المصرية تهزُّ الامة منذ ١٣ نوفمبر ١٩١٩ . فاستقال لطفي بك من منصبه لينضم الى الوفد المصري المجاهد في اوربا لتحرير البلاد . وتمزّق شمل المجمع ، وتوفي بعض أعضائه ولم نسمع عنه بعدئذٍ خبراً

ولا أظنه عائداً الى الالتئام في هذه الايام العصيبة أيام المظاهرات والالوية ، أيام « فليحي » و « ليسقط » ، بين تشكيل الوفد الجديد وانتخاب أعضاء الجمعية الوطنية المقبلة التي ستكون بمثابة « برلمان » نيابي

السياسة هي الزي الذي تتزيا بهِ اليوم أفراد الامة . فمن عالم ماذا يريد ومجاهر بما يعتقد . ومن تابع هو سعيد بأن يسير أمامه قوم ليسير في اثرهم مع التابعين . . .

« الاجبشن ميل » تناقش

(١)

تذمّرت بالامس اذ رأيت « الاجبشن ميل » تضحك من مشروع المجمع اللغوي . أما اليوم ، وقد توزعت في عمود منها ونصف عمود شظايا قنبلة قاسية ، فاني أذهل بعض الذهول أمام هذه الحملة غير المنتظرة

لا أظن المناقشة ذات جدوى اذا أريد منها الاقناع . بيد انها موفورة الفائدة مرغوب فيها عند ما ترمي الى احتكاك الآراء وما قد يؤدي اليه من شحذ الذهن والاهتداء الى رأي جديد أو اجتلاء رأي مبهم . واذا كان مناظرنا واسع الاطلاع ، خالص النية ، صادق في تمحيص الفكرة بأمانة ودقة دون تشبث بها وتعنت لها لأنها فكرته ليس الاّ ـ وجدنا في مناقشته عدا الفائدة سروراً ونشاطاً

وهذا ما أشعر به ـ بعد الاجفال الاول ـ ازاء اعتراض سبيرو بك

وأول ما يحضرني من اعتراضه هو قوله :

« ان المجمع اللغوي لا فائدة منهُ الا اذا جعل غايته تلقف جميع الكلمات الشائعة بين العامة ودمجها في اللغة . لانَّ اللغة ملك الامة ، وفي يد الامة حياة اللغة وموتها . وان لم يكن لهذا المجمع من مثيل الا في فرنسا أفنحسب سائر الامم عاجزة ركيكة البيان لان لا أكاذمية لها ؟ كلا . ان الغربيين لا يقضون وقتهم في مثل هذه المماحكات الباطلة ولديهم ما يصرفهم عنها من المشاغل الخطيرة . وكما ان اليونان والطليان لا يجهدون النفس لاحياء لغتهم القديمة ويكتفون بلغتهم الحديثة التي تتفق منها السهولة والتراكيب والاصطلاحات مع حاجات العصر ، كذلك على المتكلمين باللغة العربيـة ان يطرحوا اللغة الفصحى بصعوبتهـا وتعقيدها جانباً . وان يأخذوا بكل لفظة تدور على الالسن لأنها تؤدي معنى من المعاني المطلوبة . فاذا اعتزم المجمع اللغوي على ذلك كان عمله نافعاً . والا فليدع الشعب وشأنه يتصرف بلغته كما يشاء »

هذا أول ما اذكره من اعتراض سبيرو بك لأن الاستعارات المقبولة والتراكيب المنقولة التي يرى فيها بعضنا كل الفصاحة وكل البلاغة ، كادت تفسد علينا ذوقنا ونشاطنا وحريتنا الفكرية بل وحاسة الحياة فينا

الغرب يعالج مجاري الماء وتيارات الهواء، وينبش دفائن الطبيعة وأسرار النفوس، ويسعى الى اخفى الزوايا من هـذه الارض فيستعمرها ويغلبها على مرافقها ومواردها ومحصولاتها، ويستدر من جبالها وسهولها وأنهارها ثروةً ماكان الأهلون ليحلمون بوجودها

وفي هذا الوقت المملوء بالعراك وتنازع موارد التجارة والثروة، والسعي للمعرفة والنور، ترانا اذا شئنا أن نكتب ونعبر عن هذه الحركات الجديدة، نحرص جداً ليس فقط على ان لا يغضب من عجزنا الخليل وسيبويه، ولكن نجتهد (وباطلا نجتهد) أن لا نعرّض اللفظة الحديثة لسخط المناطقة وعلماء اللسان والشعراء والمفسرين العديد عديدهم الذين لم يصدروا لها التصريح بالحياة والتجوال!

الامم حولنا وفي ديارنا تجري وتبدع وتنبش وتطير وتغوص وتكتشف مسخرة قوى الطبيعة لنشاطها وحاجتها. أما نحن فاذا حاولنا أن نحدّث عن بعض هذا فليس لدينا الا الاستعارة القديمة والاسم الذي رضي عنه القاموس، وهما لا ينطبقان على المعنى المستحدث والآلة التي لم يعرفها أسلافنا. فاذا اقتحمنا على الاسم الافرنجي وكتبنا كما تملي علينا شخصيتنا ونزعتنا الفردية تلقّانا في الحال

الحرم اللغويّ القاسي . وجوزينا على وقاحتنا ، أو على استقلالنا الأدبيّ ، بالكلمة ذات الشأن الخطير كأنها هي الأخرى قدّستها موافقة الخليل وسيبويه : « هذا عربي بالافرنجي ! »

والذين يرموننا بهذا « الحرم » لا يذكرون حتى ولا حقنا الطبيعي في ان يكون لنا حكم متواضع على « اللغة العربية البليغة » التي اقنعوا نفوسهم بأنهم كاتبوها ! !

(٢)

فان أنا رأيت رأي سبيرو بك بوجهٍ في وجوب اصلاح اللغة وانعاشها فأراني واياه على خلافٍ في التفاصيل . ويمكن تلخيص اعتراضه في هذه البنود الثلاثة . يعترض حضرتهُ :

أوّلاً ـ على صعوبة اللغة

ثانياً ـ على تضاعفها بين فصحى أو كتابية وكلامية أي عامية

ثالثاً ـ يعترض على انشاء المجمع اللغوي ويحدّد وظيفتهُ أو بالحري هو يحذف الحدود من تلك الوظيفة ويجعلها شائعة

أما الصعوبة فاذا كانت بيّنة في اللغة العربية فهي غير محصورة فيها . وأية لغة تخلو من صعوبة اللفظ أو التعبير و الكتابة أو القواعد ، أو الزوائد التي لا منفعة لها ؟ حتى ولو كانت حديثة مختلطة كاللغة الانجليزية . فكيف بالعربية وهي من امهات اللغات وميزتها على جميع اللغات الشائعة في كونها اللغة القديمة الحية رغم الزمان

ان الذين تعلموا منا الانجليزية يعرفون صعوبة نطقها ويعجبون للحروف الكثيرة التي لا تظهر في اللفظ ومع ذلك فلا يحذفها الانجليز ويرغمون ابناءهم والمتعلمي لغتهم على اجهاد النفس في ما لا طائل تحتهُ . والانجليز قوم عمليون ملكوا العالم بهذه الصفة . وروّجوا مصالحهم ولغتهم حتى صارت مع الاسبانية ، أوسع اللغات انتشاراً . وهم مع ذلك يحرصون على تلك القيود التي تثقل كلّ لغة عصراً لتسقط عنها في عصرٍ آخر . ويظهر ان وقت تحرير اللغة الانجليزية من تلك القيود لم يأن بعد

ويصدق هـذا على اللغات الأخرى . هاك الألمانية مثلا ، لغة العلم والتجارة والكبرياء التي يطمع أهلها في احلال الثقافة الجرمانية محلّ الثقافة اللاتينية في أنحاء المعمور . فان الأطفال يتعلمون بها أبجديات أربعاً : اثنتين منهما الكبيرة

والصغيرة (Majuscule & Minuscule) من الكتابة التي يسمونها لاتينية ، واثنتين أخريين من الكتابة التي يسمونها جرمانية . ولكل من الكتابتين حروفها وخطها كأنهما لغتان لا تتشابهان . وما هذه الاّ احدى صعوبات تلك اللغة العصية . الاّ انها لم تحل دون تقدم الألمان في ميادين العلم والاقتصاد والفلسفة والآليات والرياضيات الخ . وهم يباهون بهذه الصعوبة وينظرون ببعض الازدراء الى اللغات المشتقة من اللاتينية وينكرون عليها اسم اللغات . بل يقولون انها « لهجات »

حتى الفرنساوية تجد في كتابتها صعوبة لا شبه لها في اللغة العربية . فما قد يكتب عندنا بثلاثة حروف يقتضي احياناً عندهم سبعة حروف . والحركات التي تجد اليوم عندنا من يثور عليها ويطلب حذفها موجودة عند الفرنسويين وان اختلفت وظيفتها اللفظية بعض الاختلاف . وتصريف الاسماء الذي يحرجنا في العربية موجود عند الألمان وعند اليونان الذين يضرب بهم سبيرو بك المثل . ان اليونانية الحديثة بتصريفها وحركاتها وقواعدها ليست دون العربية صعوبة وتزيد عليها في اشتباك الأبجدية . وحسبي ان أذكر من ذلك ان حرف الياء يكتب عندهم على سبعة أنواع

تارة بالحرف المفرد وطوراً باتحاد حرفين من حروف العلة

الاصلاح ليس الهدم دواماً . بل هو في الغالب تبديل وصقل وتكييف . اذ ليس في صالح الامة إنكار الماضي الزاخر بالمجد الأدبي والحكمة . وكما ان الفرد الواحد من الناس لا يأتي العالم مستقلا عن أمسه وغده بل يأتي متصلاً على رغم منه بما سبقه وبما سيلحقه ، فكذلك اللغة التي هي وحدة حية ورثناها وورثنا معها الحق في أن يكون لنفسيتنا مجموعاً وأفراداً أثر فيها . أما نبذها والاستعاضة عنها باللغة العامية فاعتراف بالعجز والخذلان . لأن اللغة تنتعش بانتعاش الامة وتجمد بجمودها . وأدل دليل على ذلك ان أساتذة الأزهر - وهم أئمة اللغة والساهرون على كيانها القديم - كانوا ، على ما قيل لي ، يلقون الدروس على تلاميذهم منذ نحو قرن باللغة العامية . ولا عجب في ذلك والامة يومئذ في سبات عميق

(٣)

لذلك كان اقتراح سبيرو بك بالاكتفاء باللغة العامية غريب في بابه . ولا أدري هل في التاريخ مثال واحد من نوع هذا التنازل والتجرد

لئن اكتفى اليونان والطليان بلغتهم الحديثة دون القديمة فلأن الشعبين الأولين اندثرا والذين يعيشون في ايطاليا وبلاد اليونان لا يتحدّرون منهما مباشرة . بخلاف العرب الذين نجد بينهم عائلات متسلسلة منذ عهد صدور القرآن . والشعبان الاجنبيان ينطقان بلغة جديدة مشتقة من القديمة ولكن لها قواعدها واصولها وضوابطها ، لا لهجة من لهجاتها الاصطلاحية

ان تضاعف اللغة أمر طبيعي عند جميع الشعوب . ففي قوميـة واحدة ذات لغة كبرى تتفاهم بها جميع أنحاء الوطن الواحد ، تجد لكل أقليم لهجتهُ الاصطلاحية الخاصة يخلّد هذه اللهجة الشعراء والكتاب الاوفياء لبيان « وطنهم الصغير » بتجديدها دون ان يكون ذلك تهديداً لكيان اللغة الجامعة الكبرى

عن طريق احياء اللهجات الاقليمية نشأت شهرةُ نفرٍ من كتاب الفرنسويين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . أمثال ميسترال ورومانيل وأوبانيل مجددي لهجة بروڤنسا واللهجات الاخرى من لسان أوك (langue d'oc) الذي يشمل وحده اللهجات الجكسونية والكتالونية واللنجدوسية والليموزينية ، والبروڤنسالية والدوفينية

والسافوارية والرومندية . أقتبسُ هذه القائمة عن لاروس الذي يختمها بكلمة . . . الى آخرهِ !

ويقابل هذا اللسان لسان أويل (langue d' oïl) وهو الذي تغلّب على تلك اللهجات فكان اللغة الفرنساوية التي نعرفها اليوم

كذلك في ايطاليا لهجة البندقية غير اللهجات البيمونتية والبولونية والمودينية والنابولية والصقلية والفيورنتينية . ولكل من هؤلاء شعراء وكاتبون بلهجتهم الاقليمية على مقربةٍ من تصانيفهم في اللغة الايطالية الفصحى

ونلقى التعدُّد نفسهُ في اللهجات العربية . فلهجة مصر غير لهجات سوريا والعراق والحجاز والجزائر ومراكش الخ . حتى لهجات تلك الاقطار نفسها تختلف فيما بينها . فلهجة الصعيد غير لهجة القاهرة . ولهجة فلسطين غير لهجة لبنان ، ولهجة لبنان غير لهجة دمشق ، ولهجة دمشق غير لهجة حلب والاسكندرونة . وهنا أقلّد «لاروس» وأقول... الى آخرهِ

فأي هذه اللهجات نعتنق وهل من صالح أهل البلاد ان يؤلفوا لكل لهجة منها كتباً جديدة ويضعوا لها أصولا وقواعد جديدة ؟ ! أليست صعوبة اللغة الفصحى والحالة هذه

اقرب الينا منالا وأثبت أساساً ؟ لا شك عندي في ان ضلع جميع هذه البلدان معها

وقد خضعت اللغة الفصحى مرغمة لسنّة التطوّر فما أضعف الشبه بين عربية الجاهلية وعربية أيامنا ! هناك الفاظ وتراكيب واصطلاحات اندثرت من تلقاء نفسها لان اللغة الحية كجميع الكائنات الحية تشملُ قوتيّ التركيب والتحليل . فهي من الجهة الواحدة تنمو وتتجدّد بما تضمهُ الى معانيها ومفرداتها . ومن الجهة الاخرى تندثر منها الالفاظ الغريبة والمفردات الحوشية والكلمات غير المطلوبة . وهذا ما تم للغة العربية في تاريخها وعلينا الآن ان نمهد لها الوسائل لتجاري الحركة الكبرى في العالم بجميع شعبها وفروعها . فيتسنى اذن ان تبقى رابطة فريدة بين مختلف الشعوب الشرقية . ولا يمكن ان نحافظ على مكانتها هذه الا وهي اللغة الفصحى القوية بقواعدها واصولها ، النازعة عن الجمود للاحتكاك بنشاط الافكار حولها

(٤)

وصلنا الى المجمع اللغوي الذي تتخاصم صحف العاصمة لأجلهِ وهو في غيبوبة الاحلام

وظيفة المجمع - يقول سبيرو بك - أن يقبل جميع الالفاظ الدائرة على الألسن ويدوّنها في قاموس اللغة

إذن يا سيدي الكريم، ما شأننا والمجمع في هذه الحال؟ ولماذا تنعقد هذه الهيئة العلمية وكل فردٍ من أفراد الامة « مجمع » قائم بذاته؟

الشعب يقول « تلتوار » و « ترمبيل » و « سمس » و « سجر » و « ماراتزمو ». أيكون انعاش اللغة بمثل هذه الالفاظ التي تُعد بالمئات؟ أتجديد هذا وترقية أم هو مسخ وتشويه؟

في اللغات الاوربية لغو هو من سقط الألسن الجاهلة يسمونه Slang أو Argot، ولا نعلم انه يرضى باستعماله كاتب يحترم نفسه، فضلاً عن نبذ المجامع له. فاذا كان الشعب كثير الاستعمال لمثل هذه الالفاظ، أيتحتم تسجيلها في اللغة الراقية، وهي التي يأبى الاصغاء اليها الفرد المهذب؟ ان للتعبير ارتقاء كما للافكار والعواطف والميول. وكلما لطفت النفس من امرىء وتثقف الفكر تهذّب تعبيره وسما بيانه لأن بين القلب واللسان سبيلاً سوياً. وما نطمع فيه الآن هو انصاف أنفسنا فنصرّح لها بأن تكون كما أرادتها الطبيعة وتفصح عن خوالجها بحرية. وان ننصف

اللغة فنحترم قواعدها وأصولها . فلا نحن نكذب ونداجي . ولا اللغة تجمد وتختلط . وما نطمع فيه ويعمل له التعليم والتهذيب هو رفع العامة الى فهم أوسع وأحذق والنزول ببعض الخاصة الى ميدان أسهل ليتم في اللغة ما هو تام بين المراتب من التمازج

أما ما يستطيع أن يفعله المجمع اللغوي سواء انعقد في مصر أم في غيرها من الاقطار العربية ، فينحصر في امور أربعة :

اولاً ـ ان يؤلف لجنة تبحث في كتب العرب ففيها بحر زاخر من الالفاظ والمسميات والمفردات الرشيقة البليغة التي نجهلها فيستخرجون منها كل ما يمكن الانتفاع به

ثانياً ـ ان يؤلف لجنة أخرى توجد لجميع المسميات والمعاني والادوات الجديدة أسماء وتعبيرات سهلة ان لم تكن في كتب العرب فعن طريق النحت والاشتقاق والتعريب لتقرير ما يتفاهم به أهل جميع الاقطار . فلا يكون كلٌّ من كتابهم قاموساً لذاته ومجمعاً متفرداً

ثالثاً ـ أن يؤلف لجنة ثالثة ترجع الى « عمال السكة الحديد وباعة الاقمشة والاثاث والماعون وادوات

الزينة والاستصباح والطب والهندسة والصناعة والزراعة وسائر شؤون الحياة ومرافق المعيشة التي اتسعت دائرتها بيننا . فتتعرف مصطلحات كل جماعة ومهنة . وتأخذ عنهم الاسماء التي عربوها وتواطئوا على استعمالها . فتتناولها وتهذّب منها ما هو خليق بالتهذيب وتدوّنه في القاموس الذي يتحتم تأليفه

رابعاً ـ ان يلخص لنا المجمع القواعد في كتاب واف على اختصاره على نحو ما يفعل الافرنج . بحيث يضمن للمتعلم الالمام بها فيعالج اللغة ويكتبها كتابة صحيحة في أقرب وقت ممكن

هذا أهم ما يقوم به مجمع لغوي عربي . على أن لا ينفرد مجمع قطرٍ واحد بتقرير الالفاظ وتدوينها لأن اللغة ليست له وحده . بل عليه أن يعرض خلاصة أبحاثه على علماء الاقطار الاخرى ومجامعها فيبحثونها ويكون التقرير في آخر الامر بالاجماع ـ قدر المستطاع

اذا كانت الاكاذمية الفرنساوية أشهر اكاذمية من نوعها فلماذا نضرب صفحاً عن مثيلاتها اللائي هنّ دونها شهرة ، على انهنّ جميعاً أنشئن في بادىء الامر لتنقيح اللغة وانعاشها .

ثم تدرجن الى العناية بعلوم الآداب والتاريخ والاجتماع وغيرها ؟

على المجمع العربي أن يبدأ بما بدأت به المجامع الاخرى . لقد أطلعتنا اوربا على ما أبدعته وتتابعت الاكتشافات وتعدّدت العلوم فوجدنا أنفسنا بغتة إزاء أشياء نجهلها ومسميات لا أسماء لها عندنا . بينا يشتد احتكاكنا بالاجانب واحتياجنا اليهم ونضطر الى مخالطتهم سواء في بلادنا وفي بلادهم . وقد درسنا لغاتهم فرأينا فيها العجب . ولا أدري لماذا نحن لا نجاري تلك اللغات ، ومميزات لغتنا هي ما فيها من التصاريف وحروف المعاني وهذه كافية وافية . واذا اضطرت الى اسم لمسمى جديد فاما أن تضعه لها واما ان تقتبسه من غيرها . على هذا النسق تمشت العربية في القرون الاولى حين ترجمت اليها كتب العلم والفلسفة من السريانية واليونانية والهندية . وقام فيها واضعو علوم اللسان فانهم وضعوا واشتقوا وعرّبوا واقتبسوا . وبقيت العربية في مقامها الأنيق يتفنن في سبك المعاني في قوالبها أبو الطيب وأبو العلاء والصابي والاصفهاني وابن سينا وابن رشد وأمثالهم من العلماء والادباء

لقد وسع القرآن اللغة العربية وحفظها من الدثور

وأبقاها في رونقها الاول[1] . ولا يطلب من أبنائها الآن لجعلها تجاري النهضة الفكرية والصناعية الحديثة الا أن يجروا على خطة أسلافهم الأولين في وضع المصطلحات وتسمية المسميات

ان لغتنا واسعة حية . نكتبها ورغم ما يعصانا من المفردات والمعاني فاننا نشعر بفيضٍ فيها وتجدُّد

الشعوب تحاول اليوم نشر لغاتها لتقوّي كيانها وتروّج مصالحها . وتحاول ايجاد لغة دولية جديدة يتفاهم بها الغرباء فيتحدون ويتضامنون ، وهي لغة الاسبرانتو وما نحوها . فكيف ينبذ الشرقيون هذه القوة الكبيرة التي امتازوا بها ، ويتجاهلون أهمية جامعة اللغة التي توحّد بين عواطفهم وأفكارهم وأمالهم ؟

يكتب الكاتب العربي الواحد كلمة الشكوى ، أو الحرية ،

---

(١) يقول الشيخ عبد القادر المغربي في كتابه « الاشتقاق والتعريب » :

« ولما أنزل القرآن ـ وهو المعجز ـ تضمن كثيراً من الكلمات الاعجمية التي أدخلها عليه العرب مع بضائعهم وصقلها بلغاؤهم وشعراؤهم بألسنتهم حتى أصبحت بذلك فصيحة كسائر فصيح كلامهم . ولم ينزل بها القرآن عن درجة بلاغته ولم تفارقه مزية اعجازه » . « وقد تتبعها السيوطي (أي الكلمات الاعجمية في القرآن) فبلغت زهاء مئة كلمة »

أو الاصلاح . يخطها في زاوية كوخه في قرية بعيدة فيرنّ صوته في ملايين القلوب الشرقية وتتوزّع عواطفه بين شعوبٍ عديدة وحسبنا هذا لنحرص على اللغة الفصحى التي هي رابطتنا الوحيدة المكينة

هذا ما ينبغي أن يذكره المجمع اللغوي أنّى انعقد . كما عليهِ أن يذكر ان التحصن في الماضي جمود وموت والاستسلام للفوضى جنون واستهتار . فكما ان الشعوب هي ابنة الماضي والحاضر والمستقبل فكذلك لغاتها ترتكز على الماضي ، وتجاري الحاضر ، وتهيء المستقبل الذي يسهل عليه بعدئذٍ أن يعمل لنفسه

ولا يفوتني هنا ان أسدي إلى سبيرو بك الشكر على عنايتـه باللغة العربية والآداب العربية مما تفرّد به بين اخوانه الصحافيين والباحثين . فلهُ مني ومن جميع عارفي فضله الحمد والثناء

فلان «ومدامتهُ»

بين الجمل الاصطلاحية المستعملة على بطاقات التهنئة بالعام الجديد تجد هذه الجملة الكثيرة الشيوع «فلان ومدامته يهنئانكم الخ الخ»

طالما وقع نظري على هذه الكلمات. ومع أني ألفتها، فهي تضحكني كل مرة. لأنها تذكرني بذلك اللبناني الذي أضاع زوجته في شوارع نيويرك ومضى يسأل البوليس عنها بلغة زعمها انكليزية حين قال: «يا مستر وين راحت هالمستيره؟»

لا يخفى على ذوي «المدامات» وغيرهم ان مدامتي ومدامتك ومدامتهُ ليست دون مستيرتي ومستيرتك ومستيرته فكاهة مستملحة. ولا يخفى ان التعبير العربي في هذه الحالة ليس بالميسور ولا ينتظر أن يكون ميسوراً لان العرب لم يكونوا ليضموا أسماء نسائهم الى أسمائهم في تبادل المجاملات الاجتماعية. فبديهيٌ ان المتفرنج منا يتفرنج «بنصفهِ الافضل» بعد أن تفرنج في أمور جةٍ لاغنى عنها في الوقت الحاضر

ولا يظن ان الشرقي وحده حائر في هـذا المعنى بل تناولت الحيرة الاوربيين . وكثيرون منهم يشيرون الى زوجاتهم باسماء يتبسم لها السامع ان لم يكن بشفتيه ففي نفسه

ولقد أخذت المسألة منذ شهور دوراً في فرنسا هو من الاهمية بحيث استدعى اهتمام الاكاذميا التي حاولت ان تعين لفظة يعني بها الرجلُ شريكته في الحياة

ترى اذا ذكرها في غيابها فكيف يدعوها ؟ أيقول سيدتي أي « مدامتي » (بالفرنساوية وليس بالعربية) ؟ أم يقول « مدام فلان » أي مدام نفسه ـ شأن الطفل المدعو بزيد ، مثلاً ، يحدث الناس عن كورته التي هي كورة زيد ، وان زيداً اكل تفاحة كبيرة بعد ان ارتدى زيد ثوباً جميلا لا يمكن أن يحصل عليه من لم يكن بزيد

أم يقول زوجتي ، أو امرأتي ، او جنيَّتي ، أو أي شيء ؟

ولم يخبرونا ما اذا مرَّ في أبحاث الاكاذميا خيال من هو اكثر ملوك فرنسا ارستقراطية واناقة . أعني لويس السادس عشر الذي كان يذكر ماري انطوانت أمام الاعوان باسم « الملكة » احياناً ، وباسم « امرأتي » غالباً . دون ان يردعه ما في اللفظة من معاني الدالة العائلية

لقد درجنا كالشعوب التي اقتبسنا بعض أساليبها الاجتماعية ، على ان يسمي الرجل زوجته باسمها في العائلة وفي حلقة الاصدقاء ، تاركا لفظة « السيدة » او « الست » لكلامه عنها مع الخدم . فلا يسأل خادمهُ هل عادت فلانة ؟ وانما هل عادت « الست » او « السيدة » ؟ ـ ولئن حسن التمشي على هذا ، فلماذا لا يرضى الرجل الشرقي ان يقول للغرباء وللمعارف « امراتي » او « زوجتي » ببساطة لويس السادس عشر ؟

إنّ انفع ما أعرفه هو اصطلاح المسلمين في هذه الديار بقولهم عن مدام فلان « حرم » فلان . إنها لتسمية توفقوا فيها كل التوفيق . واذا ذكر الواحد زوجته قال « حريمي »

بيد اني لاحظت انهم يطلقون هذه اللفظة على الزوجة المسلمة

أما المتزوجون من أوربيات (وجلهم من الشبان المتعلمين في أوربا) فان الواحد منهم يقول « زوجتي » . وهي دون « حريمي » فخامة وأنفة ، ولكنها أقرب الى التسوية الادبية بين الزوجين

بقي أن نقرر ان كلمة « حريمي » ، بلا مداورة ، دليل

ناصعٌ على ارتفاع قيمة المرأة. اذ أن الزوج من زمن غير بعيد (وما زال كذلك في الطبقة الدنيا والمتوسطة الجاهلة) كان اذا أراد ان يذكر زوجته بلع ريقه أولاً، ثم صمت لحظة، ثم أشار اليها باستعارة «الاولاد عندنا»

«والاولاد عندنا» هي التي صارت «حريمي» بفضل «التطور» الحاضر

وخلاصة القول فان استعارة «فلان وقرينته» تقوم بكل لياقة مقام «فلان ومدامته» أو «فلان ومستيرته» او «فلان وسنيورته». واذا ذكر الرجل تلك القرينة فخير ان يقول زوجتي أو امرأتي وليس مدامتي. هذا مع الاعتراف بأن لفظة «مدام فلان الفلاني» على بطاقة الزيارة هي انسب واحكم من الالفاظ العربية. واذا كتب الزوجين كتاباً مشتركا فيستحسن العنوان باسم «فلان وقرينته». لأن كلمة «زوجة» ليس لها الصبغة الرسمية المقتضاة في الاسم العائي لمكتوب

اعترفُ بوجود لفظة أخرى كلما همّ القلم بتحبيرها بلعتُ ريقي انا الاخرى شأن من أوشك ان يقول «الاولاد عندنا». وهي لفظة «عقيلة» التي لا يأنف استعمالها كثيرون من كتابنا

ألا رحمة ، يا حملة الاقلام !

أجيرونا من وقر هذه الكلمة الممزقة غشاء المسامع ! تنازلوا عنها كرماً في مطلع هـذا العام الجديد ! وعليكم بالزوجة ، والقرينة ، وبزوجة فلان وقرينة فلان ، ريثما تتحفنا الفطنةُ منكم بلقبٍ سعيد لا حلَّ فيـه ولا ربط . . .

أجوبة الامتحان

كتبت هذه المقالة رداً على محمد افندي صادق عبد الرحمن محرر « النهضة النسائية » الذي اقترح علي في المجلة المذكورة تغيير بعض الاسماء الاعجمية المستعملة في البيوت المصرية واستبدالها بألفاظ عربية

هوّن عليك يا صادق افندي ! فليس ثمة ما يستدعي حرج الصدر ، وضيق الخلق ، وشق الجيوب . هون عليك ، وابق في أحاديثك الشهرية على ذلك الظرف المأنوس

سيطول منك العناء ان أنت اردت ان تنصب نفسك على تحري الألفاظ الدخيلة واستبدالها بما يقابلها في العربيـة . وستخذلك القوة والنشاط ان انت تعمدت مطاردة تلك الألفاظ العديدة واكتساحها

ليس للغات حدود لأن ما تترجم عنه من عواطف وخواطر لا يقف عند حد . ولا يمكن حبس أية لغة ضمن سياج وهمي من محتويات المعاجم ، ومفردات الثقاة ، وتقارير المجامع العلمية ، لأن الميول الباعثة على التعبير لا تأبه للمعاجم ، ولا تعنى بآراء الثقاة ، ولا تتكيف بتقارير المجامع .

وعبثاً تقام حول اللغة الحواجز والسدود لأن اللغة ككل كائن حي حساس ، ذات اتصال دائم بما يحاذيها ويطرأ عليها . فالمدُّ والجزر فيها متعاقبان ، والنبذ والاكتساب على وفق حاجاتها سنّة جارية لا تجدي في تحويلها عربدة الساخطين

وكما تتأثر أحوال الامم باحتكاكها بالامم الاخرى ، وتتأثر بالحوادث فتأخذ وتعطي ، وتقلّد وتقلد ، وتقبس وتقبَس ، كذلك تتأثر اللغة بذلك الاحتكاك ، وتوجد فيها الحوادث ، قومية كانت أم تاريخية ، تغيراً محتوماً . حتى ليتسنى على وجه التقريب تتبع تاريخ الاقوام بمسايرة التغير البادي في لغتهم طوراً بعد طور

ولقد اختلطنا بالدولة التركية اختلاطاً شديداً ستة قرون سيطرت فيها على دوائر الحكومة والادارة في مصر وغيرها من الاقطار الناطقة بالعربية . فأدخلت في تلك الدوائر الفاظاً تركية ، واصطلاحات تركية بقيت في المحررات الرسمية وأثرها يدور على الالسن . كذلك كثرت النساء التركيات سائدات ومسودات ، في المنازل الشرقية . فكان نشر لغتهن بين ذويهن ومخالطيهن أمراً طبيعياً . وحيث لم يفلحن في نشر اللغة نثرن أسماء لمسميات متداولة ، هي هذه الالفاظ والاسماء التي تود أنت اليوم أن تستبدلها بسواها . ثم طرأ

الاختلاط بأمم أخرى عن طريق السياسة والاقتصاد والزواج فاذا بهذه الامم تعطينا الفاظها ، وتغمر لغتنا بفضلها ، وتحبونا بترقيع لغوي مزرٍ . فصار حديثنا ، حتى حديث بعض كبار كتابنا ، شبيهاً . . . بالسلطة الروسية

* * *

اما كلمة « آبلا » التي يظهر أنك مستاء منها بوجه خاص فأظنها مترجمةً عن الاصطلاح الافرنجي

ذلك أن في مدارس الراهبات تنادي التلميذات معلماتهن الراهبات باسم « يا أختي » Ma Sœur . فماذا تنادي التلميذة معلمتها في المدرسة المصرية ؟ ان كلمة « يا أختي » « يا أخي » شائعة بين الشرقيين شيوعاً لم يألفه الاوربيون . والفتاة الشرقية كثيراً ما تنادي رفيقتها بالدراسة ، وصويحبتها ، باسم الاخت . فاذا استعملت هذا الاصطلاح لمخاطبة معلمتها ، فأي فرق تضع إذَن بين معلمتها ورفيقتها ؟

فاهتدوا الى كلمة « آبلا » وهذه اللفظة التركية ومعناها « الاخت الكبيرة » تفي هنا بالمراد . اذ ليس فيها تصلب كلمة « معلمتي » ، ولا عبودية كلمة « سيدتي » . وليس فيها الدالة والالفة التي تلازم كلمة « أختي » العربية . بل هي جاءت مزيجاً معتدلاً من الدالة والاحترام ، وكلاهما

ضروري بين تلميذة ومعلمتها

ولكن اذا جاز استعمال هذه اللفظة وسواها مما لا مقابل له في العربية (وهـذا لا ينقص من شأن اللغة على الاطلاق) ، فلا مسوّغ لاستعمال الكلمات التي عندنا ما هو في معناها خيرٌ منها وأوضح

منها كلمة « تنت » الفرنساوية التي تعني العمة والخالة بلا تمييز ، بينا هي عندنا أبين آصرة وأجلى تعريفاً . و « الفاميليا » تستطيع أن تكون « العائلة » دون أن تتبلبل الالسن وتضل الافهام . و « هاو آر يو ، شير امي ؟ » يمكنها أن تكون « كيف حالك يا صديقي العزيز ؟ » او باللغة العامية اللطيفة « ازيك يا أخي ؟ » دون أن يرى أحدٌ مكروهاً في عزيزٍ لديه . « وتري بيان » أو « أول رايت » في وسعها أن تكون « حسناً جداً » او « كويس خالص » دون أن يضحي أحد بميل من ميوله ودون أن يتنازل عن رأي من آرائه . ولكنه يكون بذلك أحسن ذوقاً ، وأوفى وطنية ، وأكرم قومية

* * *

لست أعني ان كلّ الوفاء وكلّ الوطنية في تعظيم ما هو لنا وتحقير ما هو لسوانا . إنّ في التعنت تصغيراً للنفس ،

وإفساداً للذوق ، وتضييقاً للادراك وهو اوسع السبل الى الجهل والتقهقر والانكماش . ولكن الحكمة والواجب معاً يقضيان بترويج ما عندنا مما ينطبق على حاجاتنا ويفي بمطالبنا . فإن لم يكن عندنا استفدنا بنتاج إخواننا بالانسانية ليفسح لنا الحياة ويسهل علينا التفاهم . لان نتاج الانسانية من جميع جوانبها ملك للانسانية في كل زمان ومكان . والمكابرة في كل امر بلاهة وجمود وانتحار بطيء

اما ان يكون لدينا ممتلكات ثمينة نعرض عنها بلا سبب فذاك الضلال المبين

من ذا يشرح لي لماذا ينادي الطفل المصري والدته بقوله « نينه » ؟ ولماذا تقول الفتيات المصريات عن امهن « نينتي » ؟ كيف ترضون ان تكون اول لفظة غريبة ، وأعز إسم غير عربي ؟ للامهات عذرٌ في الماضي ، ولكن ما عذر النساء الناهضات في الحاضر ؟

إن كلمة « ماما » اقرب إلى لفظة أمّ العربيـة . ولقد سمعت بين اهل البادية وبين بعض اهالي فلسطين غير المتحضرين كلمة « ميمه » وهي من اميمة تصغير التحبب في مناداة الام . وهناك اساليب اخرى وكلها عذبة يهتدي اليها القلب العربي لينادي الام المحبوبة التي تسهر على مهودنا ،

وتملأ خلايا حياتنا . فما شأن « نينا » غير العربية وشأننا والحالة هذه ؟

* * *

وفي الختام اقول ان « لجنة الامتحان » الممثلة في صادق افندي قد تحكم بأني غير ناجحة في هذا الامتحان ، واني من الراسبين الذين يرشحون نفوسهم احياناً للانتحار. قد تحكم « اللجنة » بذلك لاني لم اقل باستبدال جميع الالفاظ الغريبة استبدالاً سريعاً عاماً بالفاظ عربية

لا بأس ، لا بأس . فالزمان يغير الاحكام ، إذ ندرت الاحكام المعصومة من الغلط

وكيف يجرؤ امرؤ على الحكم في حين ما زال عندنا السردار والحكمدار والبكباشي الخ . الخ حتى بعض الاشارات الرسمية والاوامر العسكرية ، غير عربية ؟ وفي حين ما زال الباشا المصري ، والبك المصري ، والافندي المصري باشا وبيكاً وافندياً بالتركية ؟

لا ضير من الحكم ايّاً كان . كما انّ اللغات الاجنبية لا تضيرها الالفاظ العربية المندمجة فيها . وليشهد الشهود ان العبرة ليست بترجمة كلمة من لغة الى لغة . وان لفظة « اميرال » التي تُطلق على امير جيش البحر ، او قائد الاسطول

الانجليزي مثلاً ـ وهي من اصل عربي ـ لا تنال من قوة ذلك الاسطول، ولم تمنعه من نشر الراية البريطانية في اربعة اقطار الدنيا . . .

* * *

هنا اورد فقرة جاءت في الصفحة الاخيرة من رسالة « الاشتقاق والتعريب » التي وضعها الاستاذ الشيخ عبد القادر المغربي عضو المجمع العلمي بدمشق ليبدي رأيه في اللغة وتطورها . فقال بقبول اللفظة الغربية مع العربية او المعربة واعتبارها مرادفة حتى تشيع ويتلقفها الفهم . ثم قال :

« اذا تنكرنا لتلك الكلمات الدخيلة واسأنا بها الظن وقلبنا لها ظهر المجن وعملنا على طردها من بين اظهرنا ، اخشى ان يدركها الحنق علينا وتعمل على الانتقام منا . فتغري بنات جنسها أعني الكلمات المعربة كلها من قديم وحديث ـ بالاعتصاب العام . ويصممن على الجلاء والانسحاب من بين سطور لغتنا وبيوت اشعارنا . وبديهي ان كلمة « الله » تكون معهن . لانها سريانية او عبرانية . وما ظنك بفئة « الله » معها ؟ لمن يكون الفلح والنصر والغلبة ؟ لا جرم ان تلك الكلمات الدخيلة الاعجمية الاصل التي لا عداد لها ـ لو غادرت لغتنا لأبقت فيها فراغاً واسعاً يعسر علينا ان نملاه

بكلمات عربية اصلية . من ذلك عدة آيات واحاديث اذا غادرتها كلماتها الاعجمية مست الحاجة الى ان يخلفها غيرها من العربية المحضة . وفي هذا ما يدعو الى وقف دورة الفلك واعادة ما مضى من الزمن وتجديد امر البعثة وإنزال الوحي

« اللهم غفراً : »

النشيد القومي المصري

بزغت علينا شمس اليوم ومعها تصريح « لجنة ترقية الاغاني القومية » بوقوع اختيارها على النشيد الذي وضعه شوقي بك ليكون نشيداً وطنياً . وكانت هذه اللجنة قد فتحت مسابقة بين الشعراء المصريين ، فاجتمع لديها ٥٦ نشيداً حاز الاسبقية بينها نشيد شوقي بك . فطرحته على أهل الفن لتلحينه وضبطه بالعلامات الموسيقية ليصير النشيد الرسمي ويتغنى به الناس في اجتماعاتهم

أترانا نسمعه بعد اليوم من جماعات الصبيان الذين يجرون في الشوارع منشدين بذلك الصوت الشجي القرار عند كل مصري :

يا سمك يا بنّي — تلعب بالميّه — ولعبك يشغلني
يا صيد العصر — يا سمك يا بنّي

أرجو ان أراهم بعد اليوم تاركين « السمك البني » وشأنه لينصرفوا مع شوقي الى تعديد مفاخر الجدود التي تدور النشيد حولها :

لنا الهرمُ الذي صحب الزمانا ومن حدثانه أخـذ الامانا
ونحن بنو السنا العالي نمانا أوائل علّموا الامم الرقيّا

الا انه لا يكتفي بامتداح الماضي بل أضاف طارف الامة الى تالدها ، وذكر اتحاد العنصرين المصريين ، المسلم والقبطي ، واتفاق كلمتهما على المناضلة في سبيل الاستقلال . ثم ختم النشيد بهذين البيتين وفيهما وعدٌ بتهيئة مستقبل يليقُ بالماضي :

نقوم على البنـاية محسنينا ونعهـد بالتمام الى بنينا
نموت فداك مصر كما حيينا ويبقى وجهك المفديُّ حيا

* * *

أما النشيد الذي جاء بعد الاول في قرار لجنة التحكيم فهو لمحمد افندي الهراوي الشاعر وأحـد موظفي دار الكتب . ومنه :

فيا وادي الكنانة لن تزولا وفيك النيل يجري سلسبيلا
يطوف بمائهِ عرضاً وطولا ويبسط فيضهُ عاماً فعاما

فيا ابن النيل، هزّ لواء مصرا وهيء في النجوم لهُ مقرا
واطلع بالهلال عليـه فجرا وعشْ في ظلّه العالي إماما

آمين ! هذا ما نتمناه لمصر العزيزة ولأبنائها

ولكن كيف يكون لواء مصر في النجوم ـ « وهيّء في النجوم له مقرًّا » ـ ثم يعيش « ابن النيل » في ظل ذاك اللواء وهو في مصر بالقارة الافريقية من سيارة الارض ؟ كيف يتوصل المرء الى رفع علم قومه في كوكبة الجوزاء ، او المرأة المسلسلة ، او الشلباق مثلا ، ويبقى هو مستظلا به على سيارة يبلغها نور تلك الصور السماوية فلا تدري هل الحياة مقيمة في مصدره ، ام ان تلك الكواكب قد ضرب فيها الانحلال منذ انطلاق اشعة منها ـ لهول ابعادٍ تفصلها عنها !

هـذا ما لا يستطيع تفسيره احد . وليس من تفسير ممكن سوى ان الشاعر وجـد امامه معنى قديماً ذا طنينٍ مرضيّ فاستعاره ضارباً صفحاً عن مخالفته لأبسط اصول العلم والمنطق . وهذا ما تفعله جميعاً ومرات عديدة في الشعر والنثر والخطابة والمحادثة العادية . وهذا « الغلوّ البديعيّ » هو من ألزم عيوب الآداب العربية

غير ان وصف الهراوي افندي للنيل « وهو يطوف بالوادي عرضاً وطولا ويبسط فيضه عاماً فعاماً » سائغ جميل

***

وما دام الكلام على النشيدين الاولين فيظهر لي ان نشيد الهراوي اسلامي ـ « واطلع بالهلال عليه فجرا » ـ اما شوقي فقد جعل الوطنية غير الدين

جعلنا مصر ملة ذي الجلال وألّفنا الصليب مع الهلال
وأقبلنا كصفٍّ من عوالٍ يشدُّ السمهريُّ السمهريا

وليس هذا التآخي في حب الاديان بجديد عند شوقي بل تجده في كثير من قصائده

وأيُّ طبيعة سمحة رحبة لا تدرك ان الدين رابطة بين الخالق والمخلوق . بينا القومية هي الرابطة الدنيوية التي ما داخلتها فكرة الدين الا انزلت المحن بالقوم ومزقت شملهم . فلا يقوم لهم قائمة ، ولا تُضمن لوطنهم حياة هنيئة بغير التكاتف والاتحاد

* * *

أهمّ الاناشيد القومية نوعان : فإما ابتهال الى الله ليطيل أعمار الملوك وينصرهم على اعدائهم . مثل النشيد الملكي الانجليزي ، والميكادو الياباني ، والمصري السلطاني . ونشيد القيصر الروسي قبل البولشفية ، ذلك النشيد الفخم الجليل في تلحينه الهادئ وأوزانه الطويلة

واما امتداح البسالة والشجاعة والمفادة وجميع الفضائل التي ظهرت في ابناء الامة واستحثاثها على النخوة والنهوض . مثال هذا النوع المارسليز التي قال فيها نابوليون ـ على عهدة ادمون روستان ـ « لهذا اللحن شاربان » ، والبرابانسون أي النشيد البلجيكي ، والنشيد الامريكي

وربما كان اجمل هذه الاناشيد وأحراها بهزّ النفوس وإثارة الحمية اناشيد الشعوب المستعبدة التي تألمت كثيراً فلم يسلبها الألم ثباتها وقوتها ورغبتها في استرداد حريتها المسلوبة وترميم شرفها المثلوم

فالى أيّ النوعين ، بل الى ايّ الانواع ينتمي النشيد المصري الجديد ؟

نشيد شوقي ونشيد الهراوي عذبان يظهر فيهما ما امتاز به الذوق المصري من حسن اختيار الالفاظ ، وسلاسة التركيب ، ومتانة السبك . ولكن هل هما يفيان بالمقصود ؟ وهل يبقى الاول نشيداً قومياً على الدوام ؟ هذا سيحكم به المستقبل

* * *

ابتاع احدهم مرة بيانو ومضى الى معلم كان يعلمه الموسيقى فاخذ يصف له حلاوة تلك الآلة ولطف طنينها .

فقال المعلم ليست المسألة مسألة حلاوة ولطف . انما يجب ان تكون آلتك ذات اقتدار على ارسال جميع الاصوات التي وجدت لأجلها وتأدية جميع المعاني المطلوبة منها . عليها ان تكون هائلة عند الهول ، ناعمة وقت النعومة ، متحمسة وسط الحماسة ، ممتثلة راضية ساعة الرضى والامتثال

وهذا القول ينطبق على النشيد المصري . انه « حلو كثيراً » وينقصه « شاربان » . ينقصه قصف المدافع ، ورنين الاجراس ، وزفير اللهيب ، وزغردة النساء ، وهتاف الثوار ، وقعقعة قيود الذين سجنوا لأجل الحرية وأنين الذين قتلوا في سبيلها

ينقصه مواكب النعوش الملفوفة بالالوية الحمراء وضجيج الجماعات حولها « ليحيي ذكر شهداء الحرية ! »

محروسة!

في ١٦ يناير ١٩٢٣

تستأنف « المحروسة » الصدور اليوم بادئة عامها التاسع والاربعين ، بعد أن اوقفت عامها الثامن والاربعين بطوله تقريباً

يقال ان اسم « المحروسة » أطلق على القاهرة لاعتقاد السكان بانها محفوظة بقوة سحرية ، او روحانية ، تحمي منها الربوع والآثار . فلذا ترى مافيها محفوظاً ثابتاً بينا آثار البلاد الاخرى تتداعى وتهدم ، وان كانت احدث عهداً

فبديهي إذن ان نتوهم ان القوة التي تحفر مدينة الاهرام وابي الهول تحمي كذلك على كل ما سمي باسمها وتشمله بالعطف والرعاية . فان هذه الصحيفة أوقفت ثلاث مرات منذ مطلع الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ . ولعلها أصيبت اكثر من جميع الصحف المصرية . ولكنها سلمت من الاذى كل مرة ، محروسةً بالقوة الخفية التي تحفر هذه المدينة العظيمة

وكما ان آثار الجراح هي أنبل الاوسمة للجندي ، « فالمحروسة » تحمل علامات جهادها الثلاث أوسمةً حقيقة

بأن يكون لها مكانها في متحف تذكاراتها الثمينة

لقد صودرت « المحروسة » في اول عهدها ، كما يقول العارفون - يوم ان كانت ميداناً لأقلام أثارت الشرارة الاولى التي صارت في النفوس يقظةً ، وفي الاذهان نوراً . أعني جمال الدين الافغاني ومحمد عبده . كما امتزج اسمها باسماء سليم نقاش ، واديب اسحق ، وعبد الله نديم وسواهم من كبار الادباء والشعراء . ومن هذه الاسماء وهذه الافكار تألف متحفُها الذي تستعرض اليوم محتوياته ، وقد حملت علاماتها الثلاث أوسمة خليقة بصحيفةٍ وسمها اولئك العظماء بوسم المجدِ والبقاء

* * *

اصبحت مصر كعبة العالم العربي وحاضرته المعنوية . فما لاح فيها نورٌ الا استضاءت به الاقطارُ الاخرى ، ولا مضت في ارجائها صيحة الا اهتزّت لها القلوب ، ولا ظهر فيها أسلوب جديد في الادب والاجتماع والسياسة ، الا نظر فيه الآخرون باهتمام ومالوا الى تحدّيه قائلين « أليس ان مصر فعلت ذلك ؟ »

صرفت شهور الصيف المنصرم في سوريا ولبنان فكانت اكثر احاديثنا اليومية تدور على مصر ويقظة مصر

يمطرني السوريون الاسئلة فاحدثهم عن ظرف مصر وادبها وطربها وذكائها . أحدثهم كيف أن مصر التي طالما صوّروها صاغرة خانعة كالتماثيل الجاثية عند قديم الاضرحة ـ قد هبت اليوم موفورة الشباب والنبل والشهامة.

أحدثهم بخشوع وتحنان عما رأيت وسمعتُ وعرفتُ . فأرى الخشوع مني والتحنان قد انتقل الى السامعين فجال في عيون النساء دموعاً وبدا في وجوه الرجال تأثراً . فادرك عندئذ ان مصر أصبحت مطمح الانظار وموضوع الاعجاب

ولئن كان هذا مما يبعث في مصر عاطفة الاغتباط والفخار فهو كذلك يلقي عليها مسئولية كبيرة . لأن في الاعجاب تشجيعاً ووازعاً وايماء الى المنهج القويم الذي يتحتم السير فيه نحو العلى

ولا يساق السائر في مثل هذا المنهج بدافع الغرور والمباهاة . اذ لا مباهاة ولا غرور مع المسئولية . فالمسئولية صارمة تثقف الذات القومية والذات الفردية ، غير ملاينة ولا مهادنة . وهي من اكبر البواعث على نقض دثار الخمول وتكوين صفات النبل والكرامة في النفوس الموهوبة

عيشي يا مصر المحروسة أهلاً لاعجابٍ يتحول عندك مسئولية وكرامة ، فترسلينه الى الاقطار الشرقية وحياً يا نعاشاً وقدوة جميلة !

الحياةُ امامكِ

كتبت هذه الرسالة الوجيزة خاصة لكتاب
« محفوظات البنات » الذي اقترح تأليفه مجلس
مديرية القليوبية ليدرس في مدرسة البنات
الاولية التابعة له بشبرا البلد

الحياة امامك ، ايتها المصرية الصغيرة ، ولك أن تكوني فيها ملكةً أو عبدة :

عبدةً بالكسل ، والتواكل ، والغضب ، والثرثرة ، والاغتياب ، والتطفل ، والتبذل . وملكة بالاجتهاد ، والترتيب ، وحفظ اللسان ، والصدق ، وطهارة القلب والفكر ، والعفاف ، والعمل المتواصل

فان عشتِ عبدةً بأخلاقكِ كنتِ حملاً ثقيلا على ذويك فكرهوكِ ونبذوكِ . واذا عشتِ ملكةً أفدتِ أهلك ووطنك وكنتِ محبوبة مباركة

فأيهما تختارين ؟

إذا اخترتِ الملك فروّضي نفسكِ على المكارم منذ الساعة ، لأن الملوك يسلكون طريق العز منذ الصغر

تكلموا لغتكم!

حبذا غيرة تبديها « جامعة السيدات » في بيروت على اللغة العربية

وعلى ذكر اقتراحها « اللغة والوطن » اقول اني دخلت منذ أيام مكتبة ايطالية صغيرة ابتاع بعض كتب جبرائيل دانونتزيو. فأقبل صاحب المكتبة على صفوف الكتب يستخرج منها مؤلفات ذلك الجندي الشاعر الفرنساوية (لان دانونتزيو وضع كتباً بهذه اللغة) وتراجم كتبه الايطالية اليها. وإذ طلبتُ المؤلفات الايطالية في الاصل لا منقولة سأل ما اذا كنتُ أريدها لنفسي ام لغيري. قلت ـ « بل أريدها لنفسي »

قال وقد أبرقت أسرته ـ « اذاً تعرفين الايطالية؟ »

واذ اجبت بالايجاب اخذ يتكلمها وقال بلهجة المتوسل:

ـ « لماذا لا تتكلمينها اذن؟ أعلمُ ان الفرنساوية اكثر شيوعاً في هذه الديار وانها هي المصطلح عليها في الحوانيت والاندية. ولكن ماذا يمنعك عن استعمال لغتنا مع ابنائها؟ الفرنساوية جميلة، ولكن آه ما أجمل الايطالية

في فم من يحسنها ! وما أحبها الى من اعتادها ! هي لغة الموسيقى والفنّ والقلبِ والشباب والربيع ، وكل لفظة من الفاظها تستحضر شواطئ ايطاليا وآكامها وخضرتها وأزهارها ، وألواح متاحفها ، ولياليها الغريدة ، وقلبها الخصيب وروحها الخالد . . . »

وظلت كلمات الشيخ صاحب المكتبة وصورة وجهه المفتون بوطنهِ في ذاكرتي حتى المساء اذ اجتمعتُ بطائفة من كرام السوريين رجالاً ونساء . فاخبرتهم عما سمعتُ في ذلك الصباح وتمنيت ان يكون لنا نحن الشرقيين مثل ذلك التعلق باللغة التي فكر فيها آباؤنا ، وعبروا عن افراحهم وآلامهم وآمالهم وجهادهم

فوافق الحاضرون . الا انّ احدهم ـ وهو من « الطراز الحديث » المكرَّر ثلاثاً ـ فتح فاهُ فتحة انيقة تليق بالقرن العشرين وتكلم قائلا :

ـ « نعم ولكن لفظ العربية صعب علينا . فهناك حروف خشنة مثل (محاولا اتقان اللفظ) الـ ... عين والـ ... حاء والـ ... خاء ، يا الهي ! كل هذا يمزق الحلق فضلا عن ثقله على السمع » وطفق حضرته يتكلم الفرنساوية جاعلا الراء منها غيناً غنّاء

فتبادر الى ذهني ان المرحوم الدكتور شميل قبل وفاته بشهور قليلة حضر درس الكونت دي جلارزا استاذ الفلسفة يومئذٍ في الجامعة المصرية . وكانت المحاضرة في فلسفة ارسطو . فمضت عشر دقائق تقريباً والدكتور يصغي بانتباه تام . اذ ذاك لفظ جناب الكونت كلمة « الطبيعة » ثلاث مرات في جملة واحدة . فمال نحوي الدكتور شميل وسأل :

— « أوطنيٌّ هذا المحاضر ام اجنبي ؟ »

فأجبتُ — « هو مستشرق اسباني »

ذكرت تلك الحادثة متعجبة كيف ان اناساً ولدوا في جرود لبنان ، او في انجاد سوريا ، او في سهول مصر ، يجدون اللغة « خشنة يا الهي ! تمزق الحلق » ويحسبون من يتكلمها في المجتمعات « فلاحاً » . في حين ان اجنبياً يتقن لفظها ويحسن الافصاح بها في موضوع فلسفي عويص . يحسن ذلك الى درجة ايهام رجل كالدكتور شميل ، وحمله على التردّد مدة عشر دقائق تقريباً ، قبل ان يقدم على الاستفهام هل ذلك الاجنبي من اهل اللغة ام من محبيها

تكلموا ما شئتم من اللغات يا بني أمي ! ولكن لا تنسوا لغتكم

رسالة وحاشية

(١)

نقد الكتب

استاذي الدكتور العلاّمة

اشكر لك المقال الممتع الذي كتبتهُ عن نقد الكتب في عدد فبراير وكان عليّ ان اصمت تهيباً عند لهجتهِ الصادقة . على انّ لديّ شيئاً أضيفهُ

لم اعنِ « مجلتكم » في كلامي عن قصور الصحف ، ولا عنيت سواها من المجلاّت المنتبهة لما فُرض عليها . فتحدثنا كلّ شهر عن كتب ونشرات ومجلات وأعداد ممتازة من الصحف بكلام كله افادة . فهي من هذه الوجهة ترضي الواجب العلميّ الذي تعمل للقيام بهِ بكرامةٍ وأستاذية

أما ما ذكرته عن الصحف الاجنبية فاستأذنك بألاّ نتباحث فيهِ . لتلك الصحف شأنها في التفاهم مع جمهورها وارضاء بيئتها . اننا بعيدون عنها . ولأغراضها ودخائلها

جاهلون . أنتَ تعرف منها بالاختبار بعض اساليبها ، اما انا فأجهلها تماماً . فاذا حدّثتُ عنها كنت دعيةً متطفلة . وعلى كلّ ، فليس كلّ سارٍ في الغرب جديراً بالاقتباس في الشرق دون مراعاة الحاجة المباشرة

وإنما أسألك : كيف يمكنني ، أنا الجمهور ان أطلع على حركة التأليف والترجمة في البلاد ، في مختلف الموضوعات الفلسفية والعلمية والاجتماعية والتمثيلية والادبية الخ ؟ كيف يمكنني ان أعلم بصدور ما يهمني من الكتب ، سواء كان اهتمامي بها اضطراراً للعمل وكسب الرزق ، أم للفائدة الفكرية ، أم للتفكهة وإرضاء للرغبة ؟ إنّ رسائل الاخبار الكبرى هي الصحف السيارة ، وكلّ الغاية منها إيصال الاخبار الى الجمهور واطلاعه على ما يجري في بيئته وفي العالم من الشؤون والحوادث . فإن لم تنقل لي تلك الصحف ما وُجدت لنقلهِ ونقل نظائرهِ ، فمن ذا يكون الرسول بين المؤلف الذي كتب للجمهور ، وبيني انا الجمهور الذي اتطلع الى ما ينشر لي مؤلفي ؟

تعلم الصحف الغاية من وجودها والسرّ من نشرها ، فتراها تذيع أمثال الاخبار التالية :

« تشاجرت زينب بنت علي في الخرنفش مع جارتها

المدعوّة حنيفة بنت احمد السقا فتضاربتا وجرحت احداهما الاخرى جرحاً طفيفاً في يدها تقتضي معالجته يومين كاملين » أو «سطا اللصوص ليلاً على عزبة « ما أدري ايه» فاستيقظ بعض الاهالي ففرّ اللصوص ولم يوقف لهم على اثر » الخ . الخ

فاكرم علينا يا افندم ، دام فضلك ، برأيك في نشر امثال هذه الغرر ؟

قد يكون من واجب الصحافي ان يفسح صحيفته لما هو اتفه من هذا ، فكيف بالوقائع الفكرية والادبية التي هي من اصدق مقاييس تطور الامة ؟

أقول اذاً ان الصحافي يتحتم عليه ـ وليس له في ذلك الخيار ـ يتحتم عليه ان يذكر في صحيفته كلّ كتاب يرسل اليه . اما الركون الى الاغضاء فاجحاف في حقوق المؤلف ، اجحاف في حقوق القارىء ، اجحاف في حقوق الجمهور الذي له ان يطلع على قوائم ما تنتجه افراده ، واجحاف في حقوق الصحافة ذاتها التي هي بذلك السكوت تسجل على نفسها القصور وعدم المبالاة بما لا يجوز اغفاله

افهم ، واعلم بالاختبار ، ان النقد عمل شاق دقيق يستغرق وقتاً طويلاً ويتطلب معرفة واسعة ، وذوقاً مهذباً ، وبصيرة شفافة ، واحساساً حياً يفهم العدل كما يفهم الجمال

وكما يفهم انظمة الحياة ، ـ فهو لذلك غير ميسور لكلّ من ادّعى حمل لوائه . والصحف في شاغل لانهما كها بالمشاكل السياسية والقومية . فلا أقل من ان يؤدوا هذا الواجب وبأن يذكروا باختصار اسم كل كتاب يهدى اليهم بلا تحيز ولا استثناء ، مع اسم مؤلفه وموضوعه وثمنه والمكتبة التي يباع فيها . حتى اذا شعر كاتب او قارىء باندفاع خاص في سبيل الكتاب كتب ما شاء في نقده او تمحيصه او معارضته أو تحبيذه

الصحافة سجلّ الوقائع اليومية والمرآة التي ينعكس عليها من نفسية البيئة الصور المتتابعة التولد ـ فاي الوقائع واي الصور تفضل ثمرات المطابع ونتاج الاذهان والقلوب ؟ بل يوم تقومون ، أيها المفكرون ، تزنون كفاءة الامة وتحصون خطاها في سيرها الى الامام ، فهل لكم من وثيقة اصدق من الكتاب والفنّ والمتحف ؟ كلا ! وذاك ما تهملون !

والآن وقد فرغتُ من الخصومة التي يحسبها سادتنا الرجال عنصراً ملازماً للمزاج النسويّ ، اعود ضاحكةً من قلمي الذي تمتع لحظة باستقلاله التام وقام يناطح صخرة الصحافة المنيعة ـ أستغفر الله ! عنيتُ صرح الصحافة المنيع

(٢)

« الرأي العام » المصري في عهد محمد علي باشا

حاشية —

وهكذا في رسالةٍ وحاشيتها عليَّ ان أجابهَ العلم في شخص الدكتور صروف ، والصحافة في . . . صرحها المذكور اعلاه ، والتاريخ في شخص حسين افندي لبيب استاذ التاريخ في مدرسة « القضاء الشرعي » . فقد انكر عليَّ حضرتهُ قولي ان احدى الفوائد التي اخذت مصر تجنيها بعد جلاء الفرنسويين هي بدء تكوُّن « القومية » . لأنه يرى ان « فشو روح القومية واستئصال الرأي العام مظهر من مظاهر رقيّ الاوربيين في القرن التاسع عشر »

لقد غنمتُ من كتابات الاستاذ ، لا سيما من كتابه عن « المسئلة الشرقية » . فوائد تاريخية جمة . لذلك أقول اني لو كان لي الحظ ان اكون من تلاميذه لكنت اجترأت ان اسأله في « حصة » اليوم ، أو بعدها ، ما اذا كان الرأي العام الاوربيّ قد اشترك اشتراكاً أصحّ كثيراً من اشتراك « الرأي العام » المصري على عهد محمد علي ، في جميع الحوادث التاريخية العصرية

أهو « الرأي العام» الانجليزي الذي يبايع ملوك انجلترا، مثلا ؟ أم هي فئة من الموظفين والكبراء تقوم باتمام العادة المرعية والتقليد المستحكم في مكان معين من عاصمة انجلترا، فيعدُّ سكوت الجماهير في انجلترا وفي المستعمرات الشاسعة مبايعةً وتسليماً ؟

هذه صورة « الرأي العام » في ما هو عادة وتقليد، فما هي صورته في الانقلابات الخطيرة ؟ أهو « الرأي العام » الذي أوجد الجمهورية في الولايات المتحدة ـ وأوجدها في اميركا المتوسطة والجنوبية ؟ أهو « الرأي العام » الذي دعا الى الجمهورية الفرنساوية الاولى والثانية والثالثة ؟ أهو « الرأي العام » الذي قلب الحكومة الروسية ؟ يقال ان المانيا لو استفتيت اليوم لغلب فيها الحزب القيصري . ورغم ذلك فأفراد قلائل يديرون دفة الجمهورية فيها . ويوم يتكلم التاريخ سيحدثنا عن « ثورة » اميركا وفرنسا وروسيا والمانيا فنحذق ما يقول . لعلمنا ان كلَّ انقلاب يبدأ دواماً برأي أخصّ أي رأي فردٍ . يصير بعدئذٍ رأياً خاصاً او رأي افرادٍ او زعماء يسيطرون على « الشعب » بنفوذهم او بالاستهواء او بالارهاب . ويتكلمون باسمه وهو احب ما عليه ان يذكر ويحسب في الوجود ، في حين لا مقدرة له على

التدقيق والتمحيص . واذا وجد في « الرأي العام » بعض العناصر المتبصرة المدركة أليس معظمه مسيراً معالجاً كآلة تدفع فتصيح ، ثم تجذب فتصمت ؟ وسيكون ذلك ابداً لانه يستحيل ترقية جميع الناس الى مستوى واحد

فلماذا لا يجوز لمصر التعبير المستعمل في البلدان الاخرى لأحوال متشابهة ؟ وتلك الاقلية التي انتبهت سواء عن استياء من حكومتها ، او طمعاً بمصلحة خاصة ، او بايعاز من محمد علي ، لو لم تنتبه لمقدرتها على ازعاج المماليك ترى أكانت تزعجهم فتغلبهم ثم تلاشيهم ؟ وأكان محمد علي ينجح وحده كما نجح بأعوانه ؟ وتلك الحلقة التي التأمت يومئذ حول الوالي وأيّدته فكانت النواة الاولى في تكوين الوحدة المصرية الحديثة ، أي الاسماء نطلق عليها سوى اسم « القومية » الآخذة في التكون ؟

هذا . وإني لأرجو الاستاذ الجليل ان يظلّ « واقفاً لنا بالمرصاد » في سبيل تحرّي الصواب في الوقائع التاريخية ما امكن . لانه بذلك يتم واجبه العلميّ وينيلنا الفائدة المطلوبة

الشعر القصصي الحماسي

(١)

استاذي الدكتور العلاّمة

قرأتُ البحث المستفيض الذي نشر تباعاً في عددي ابريل ومايو وقد تفضل به الشيخ كاظم الدجيلي اعتراضاً على ما كتبتهُ في الشعر القصصي الحماسي حينما نُشرت عمرية حافظ. اسأل حضرته قبول شكري لما استهلّ به مبحثه من تجميل ذكري. إني اعتبرُ ذلك الثناء ناطقاً بسعة حلمهِ اكثر منهُ دليلاً على اهليتي. ولكني، على كل حال، سعيدة بهذه الكلمات المنشطة الآتية من بعيد. ويظهر لي ان العظمة العربية التي اندثر ما كان لها من صرح ومعقل على شواطئ دجلة والفرات ما برحت حيةً نامية نباهة وخلائق عاليات في نفوس كرام الاهلين

على انهُ في اجزاءِ بحثهِ الأخرى قد اوقع بي ظلماً عادلاً . . . اذا جاز الجمع بين هاتين اللفظتين . لانهُ لم يكتفِ بايراد اسماءِ القصائد والملاحم والعلواءات المدوّنة في مجموعات الاشعار ودواوين العرب، بل لامني تلميحاً

لأني لم اقرأ تلك القصائد التي نظمها عرب الجاهلية ومَن عقبهم ولم يصل الينا ذكرها الاّ بالنقل والتواتر. كذلك لامني لجهلي منظومات قصصية حماسية مخطوطة حفظت في المكاتب الخصوصية، لم يطلع عليها غير حضرتهِ وأفراد قلائل من الافاضل امثالهِ

اعترف باني مجرمة في ذلك. ولكنها جريمة أجبر على ارتكابها سائر أبناء العرب كما تَرتكبُ ملايين البشر خطيئة أبينا آدم بنظام الوراثة. بيد اني مستعدة للتكفير عن جريمتي بالصورة الآتية: ليؤكد لي حضرتهُ ان تلك المنظومات من نوع الالياذة وحائزة مثلها لجميع الشروط التي يُعرف بها الشعر الذي يسميه الفرنجة (épopée) فاتلقى تأكيدهُ باليقين واستشهد بتلك المنظومات بعد اليوم على عهدتهِ

وبكلامي عن «الايبوبي» عند الافرنج انما اعني تلك المنظومات القديمة الطويلة مثيلات الياذة هوميروس او التي نسجت على منوالها. وقد ذكرتُ بعضها في سياق الكلام على عمرية حافظ. اما اليوم فقد سرت الفوضى الى كل شيء. وكما حدث اختلاط محتم بين الدرجات الاجتماعية واللغات فقد سرى الاختلاط كذلك الى أبواب الشعر

والادب . فملاحم الافرنج في العهد الاخير يتغلب فيها العنصر الغنائي فضلاً عن قصرها . واذا اتصل الباحثون الى اثبات عربية سفر ايوب قبل ان يبرز عبرانياً، فلا حاجة بنا الى غير هـذا الأثر العظيم لنكون من اغنى الامم في الشعر القصصي الحماسي

اما الجزء المحسوس من مقال الأستاذ، حيث ذكر القصائد المدونة في مجموعات العرب، فيسرني اني واياهُ على اتفاقٍ تام في امرها الجوهري . والاختلاف بيننا انما هو على الاسم فقط : فحضرتهُ يطلق على هذه المنظومات اسم الشعر القصصي الحماسي . وانا أُسمي بعضها شعراً وصفياً كقصيدة بشر بن عوانة في مقتل الاسد ، مثلا ، وقصيدة مزرّد بن ضرار السعدي في وصف شكتهِ . واسمي الكثير الآخر شعراً حماسياً . حضرتهُ يقول ان من قرأ شعر آخيل في الايلياذة ودرس أشعار عنترة العبسي ومهلهل بن ربيعة وقرابتهِ البرّاق بن روحان يرى قرب المبدإ والمغزى بين أبطال العرب الثلاثة وبطل اليونان . ذلك لا ريب فيه . غير ان آخيل فردٌ واحد من امة يتكلم كلاماً حماسياً ، وما كان كلٌّ من عنترة ومهلهل والبرّاق الاّ فرداً واحداً من أمةٍ يتكلم كلاماً حماسياً . أبطالنا كابطال الاغريق بل أشد

شكيمة . وكلامهم كعزيمتهم ورجولتهم ، قد تفوق بلاغتهُ بلاغة الاليـاذة . على ان ذلك لا يكفي لتكوين الشعر القصصي الحماسي الذي وضع له اهلُ الغرب قواعد وشروطاً. فان نقص شرط من تلك الشروط أو تبدّلت قاعدة من تلك القواعد خرجت المنظومة من حيز (الايبوبي) ودخلت دائرة شعرية اخرى . لذلك قلتُ يوم كتبتُ عن عمرية حافظ ان هـذا النوع من الشعر (الحماسي) « عندنا منهُ كثير كشعر عنترة العبسي مثلاً »

غريب ان جميع من قرأتُ من المستشرقين يقول بخلو العربية من الشعر القصصي الحماسي ، ومنهم من يطنب في وصف جمالها واتساعها وفلسفة قواعدها . وقع في يدي في العام الماضي مجموعة المعلقات مذيلة بشرح ألماني من وضع المستشرق « وولف » وكنتُ في مجلس حضرهُ احد كبار علماء المسلمين عندنا . فصرت اسأله عن معنى بعض الالفاظ غير المألوفة ـ وما اكثرها في المعلقات ! ـ فكان يهزُّ رأسه احياناً ويبسم قائلا « لا ادري ! » . فأبحثُ اذ ذاك عن معنى الكلمة في الذيل الالماني واجده . فاذا ما ذكرنا ان عرب الجاهلية كانوا اقرب العرب في جميع العصور الى نظم الملاحم ، وذكرنا ان المعلقات اول تلك الملاحم وأهمّها ، ـ

عجبنا لأمثال وولف هـذا الذين وقفوا حياتهم على هذه الابحاث وتعصبوا للغة العربية واحبوها حباً يفوق حب كثيرين من اهلها لها، كيف ينكرون عليها شيئاً ثابتاً فيها ؟ وكيف لا يدري هذا الرجل الذي ذيّل المعلقات بذاك الشرح الوافي في ايّ الصنوف الشعرية ينتظم صنف المعلقات؟

ومن جهـة اخرى كيف يقول معرّب الاليادة في مقدّمته : « فلا سبيل اذاً للزعم بوجود ملاحم لعرب الجاهلية على نحو ما يراد منها بعرف الافرنج » ؟ وهو الذي قال بعد التلميح الى ان حرب البسوس عنـد العرب تقابل الحرب الطروادية عند الاغريق ، وذكر ما تناقلته العرب من منظوم بديع لوصف مواقعها ، قال : « اننا نجد تلك القطع غير ملتئمة لفقدان اللحمة بينها فهي كالحجارة المنحوتة قد أُحكم صنعها وبقيت ملقاة في ارضها غير مرصوصة بالبناء . ثم اذا نظرت الى اشهر الرجال والنساء فيها رأيتهم جميعهم شعراء . فكليب يقول الشعر ومثله زوجته جليلة واخوه مهلهل . وكذلك مرّة شاعر وابنه جساس شاعر . وكل ذي شأن في القصة من غريب وقريب شاعر . كالحارث بن عباد وجحدر بن ضبيعه . فمجموع شعرهم أشبه من هـذا الوجه بالشعر التمثيلي لأن لكل حادثة شاعراً ينطق بها . بخلاف

شعر الملاحم كالالياذة اذ ترى هوميرس فيها ينطق بلسان الجميع »

نقلتُ هـذه السطور عن مقدمة الالياذة لأن حضرة الاستاذ استشهد غير مرة في مبحثه بالمقدمة المذكورة ، ولأني أرى فيها تعريفاً حسناً لما جرينا على تسميته شعراً قصصياً حماسياً

نقول « شعر قصصي حماسي » ولا نقطن ان أول دليل على تغيبه من عندنا هو تغيب اسم ينبيء بوجوده . كيف لم يهتم العرب الذين وضعوا للمسمى الواحد مئات الاسماء احياناً ، بايجاد كلمة تدل على خلاصة ما عندهم من آداب ؟ نعم انه يوجد كلمة ملحمة ، وجمع ملحمة ملاحم . . . يا حفيظ ! لو كنتُ شاعراً وعلمت ان احدى قصائدي ستصبح ، بل ستمسي ، يوماً ملحمة من الملاحم ، لكنت كتبت براءة شرعية بيني وبين القوافي والاوزان بحذافيرها .

ثم ان هـذه الكلمة لا تؤدي معنى Epopée مطلقاً . واسم « حماسي » وحده أو « قصصي » وحده يعني نوعاً آخر من الشعر . واسم قصصي حماسي طويل كالشواطىء وهو من وضعنا نحن أبناء هذه الايام . ولكني أتلقى بسرور كلمة « علواء » التي اشار بها حضرة البحاثة المفضال

الاب انستاس ماري الكرملي ، فهي أتمّ ما استعمل الى الآن معنى واختصاراً ولفظاً . ولكن ان نحن أخذنا بها وأطلقناها على الشعر القصصي الحماسي فهي كذلك دليل على غيابه لندرة استعمالها . فقد اخبرني من قرأ اكثر كتاب الاغاني انه لم يرَ لها ذكراً فيهِ

ان غياب « الايبوبي الافرنجية » لا يحط من مقام لغتنا لأن في العربية منظومات عالية وشعراً حماسياً بديعاً (مما دعاه بستانيّ الالياذة « ملاحم قصيرة ») يتفق مع روح الامة . ولن يصل شعراء الافرنج الى الاتيان بمثل ما يميزه من حزالة اللفظ وفخامة المبنى ورصف المعنى والبساطة البليغة ـ بساطة الروح العربي وبلاغته الخلابة . لأن الغربي سيظل ابداً غربياً والعربي عربياً مهما قرّبت بين أحوالهما الخارجية اسبابُ العمران

ومن طبيعة العربي الهبوط الى نفسه وتحليل ما يجول فيها من عاطفة وميل ورغبة ومفخرة . فاذا ما اقبل ينشد تغنى بما يهيجه من غضب وكيد وانتقام وحماسة وكرم ونخوة ، فكان مبدعاً شعر الحماسة والفخر . أو نظم المراثي أو زفر بما يسعّر جنانه من وجدٍ وحنين ، فكان مبدعاً شعر الغزل والنسيب . وشعره الوصفي ينتمي

دواماً الى أحد هذين النوعين لأن الطبيعة العربية لم تهتم قط بالنظريات المجردة ولم تنزع الاّ الى الاشياء المحسوسة الملموسة . فجاء شعرها الفريد صورة صادقة لجوهرها الوجداني . وكان الشعر القصصي الحماسي عندها متفقاً وسليقتها الخاصة يجري على منهجه الخاص خاضعاً لجماله العربي الانيق الخاص . ولو قام أحد شعراء عصرنا يسرد تاريخ الامة العربية لجاءت هذه العلواء المجيدة اعظم وأبدع الياذة في تاريخ الادب عند جميع الشعوب

اثبت هذا الرأي ليس بصفته رأياً حسناً ولكن بصفته رأيي ـ كما كان يقول مونتاين . وقد يكون الخطأ نصيبي والصواب في جانب غيري . ولكن الحقيقة كعبة جميع الباحثين فانما اياها ينشدون في كل نفي واثبات . ولو اردتُ اليوم كتابة ما دونته بالامس لما ابدلت من الالفاظ الاساسية لفظة واحدة . ولو لم يكن لذلك من سبب سوى حمل الشاعر البغدادي على كتابة تلك الصفحات الممتعة النفيسة الاثنتي عشرة في معارضتي لكفى ـ

(٢)

هلاويا !

لقد عاد الشيخ كاظم الدجيلي في فبراير ١٩٢٤ الى

موضوع الشعر القصصي الحماسي الذي يُطلق عليه هذه المرة ـ ولعله نسي اني كنت من أنصار هذه التسمية ـ اسم « العلواء عند العرب » . فجاء يثبت وجود هذا النوع من الشعر تقريراً «للحقيقة»، وانصافاً للعرب، وترويضاً ـ طبعاً! ـ لذلك « العناد » الذي يأبى حضرته إلا ان ينسبه اليّ ناقشني . وصمت خمسة أعوام درس خلالها الحقوق ، وتفحني بقصيدة نشرها في « الهلال » ودعاني فيها ببعض الاسماء الحلوة التي يبتكرها الشعراء يوم يوطدون النفس على معالجة « العناد » عند امرىء بوجه من الوجوه ، وعلى ان يسترضوه بالاوزان والاسجاع ليخاصموه بالنثر المرسل

وكنت أعلم بقصيدة وبلا قصيدة ، برسالة وبلا رسالة ، باسترضاء وبلا استرضاء ، ان الشيخ كاظم لن يسكت حتى يسكتني ويسكت المستشرقين القائلين بتغيب الشعر القصصي الحماسي من لغة العرب ولغات الساميين عموماً

وليسمح لي الشيخ كاظم ان أحاول ارضاءه في ان أضيف الى بعض القصائد « العلوائية » التي ذكرتها سابقاً من حافظ وشوقي ومطران (أورد الاسماء على حروف الابجدية) منظومات جديدة اطلعت عليها بعد . . . الفصل الاول من قضيتنا . احداها « الحرب الكبرى شعراً » وهي منظومة

طويلة تملأ كتاباً تاماً وتصف وقائع الحرب الكبرى . بقلم الاستاذ اسعد خليل داغر . واخرى قصيرة هي « ترجمة الشيطان » للاستاذ عباس العقاد في الجزء الثالث من ديوانه . ومنظومتان للمرحوم عبد الحليم افندي المصري

ولئن خصصت هذه المنظومات بالذكر فلأني اطلعت عليها . وقد يكون هناك غيرها مما أجهله

أنشأ الشيخ كاظم ينشر رده لتقرأ الناس وظهر الجزء الاول من تلك المرافعة الجديدة في شهر فبراير . لا شك انه تعب كثيراً وبحث كثيراً . وهو ولا شك مورد لنا مع اسماء المنظومات التي اهتدى اليها الاسم الذي كانت تُعرف به عند العرب . اذ كيف يهتدي المرء الى فرع من الآداب ولا يهتدي الى اسمه ؟

فاذا أثبت الشيخ كاظم وجود الشعر القصصي الحماسي (وهو فاعل باذن الله) في لغتنا فهل يعترف لي شعراء العصر والمجامع العلمية بهذا « الفضل » ؟ وهل يسلمون بأنه لولا « العناد النسائي » ما كنا وصلنا الى هذه النتيجة ـ « الباهرة ؟ »

قيل لي ياسيدي الاستاذ انك رحلت أخيراً الى انجلترا لتدرّس اللغة العربية في جامعة لندن . وسواء كنت الآن في انجلترا أم في العراق فهات يدك اصافحها !

تعجبني منك نخوتك وتعصبك للغتك في ادبٍ وهدوء ورصانة . ويعجبني منك ثبات خمسة اعوام رغم اعمالك الاخرى ، ورغم قصائد الاسترضاء في الشعر والنثر

قد تستغني اللغة عن كثير من شعرها . ولكنها لا تستغني عن همم رجالها وثباتهم وجهادهم للخير والحق والانصاف

أتمنى هذا الثبات وهذا الجد وهذه النخوة لجميع رجال الشرق . ولأجلها أصافحك عن بعدٍ ، ايها الشاعر العراقي ، مصافحة الثناء والاعجاب

حديث عن الشرق الاقصى

في الشتاء موسم السياحة يكثر من الأدباء والعلماء الاجانب روّاد هذه الربوع من يطلب التعرف الى بعض حملة الاقلام عندنا . فيفوزون بذلك عن طريق التوصية التي ليس أبرع منهم في السعي للحصول عليها

ولئن أزعجك ، دون ان يدهشك ، من بعض هؤلاء تصميمهم على تسيير الحديث في منهج قرّروه سلفاً واصرارهم على تأويل الكلام لمصلحة سياسية يخدمونها أو غرض خاص يعملون لهُ ، فانه يشفع فيهم الغربي اليقظ المنصف الذي يحب بلادهُ ويجاهر بحبهِ . الا أنه يسلم بأنها ليست كلّ الدنيا وان ليس من المعقول ان تتغلب مصلحتها على مصالح جميع الاوطان وجميع الشعوب . بل ان هناك انسانية . لكل جزء منها حقه في حدوده الطبيعية

يسلّم بأنك انسان مثله تتمتع بمثل حقوقه في العاطفة والمطلب والمصارحة والمسعى . ويعترف بأنه سمع عن هذا الشرق ولكنه لا يعرفهُ ويود ان يعرفه ليقف على

ما فيه من جمال وصدق وانسانية

من هذا الفريق كاتبان امريكيان جآآني العام الماضي يحملان توصية من الدكتور فارس نمر. كانا قد طافا في ربوع الشرق الادنى. ومما أدهشهما في مصر وغيّر زعمهما في «تعصب الشرقيين» امر بسيط في نظرنا وهو انهما دعيا الى تناول طعام الغذاء يوم عيد الميلاد على مائدة رئيس الوفد المصري (وهو يومئذ المصري (بك) باشا السعدي)

وسارا من الشرق الادنى الى الهند. وقد يظهر بعض ما هما عليه من صدق وعدم تحيز في هذه النتف التي اقتطعها من رسائلهما عن الشرق الاقصى ـ الاقصى بموقعه الجغرافي. ولكن ما أدناه الينا بروحه وحالته وموقفه!

***

بورت سعيد ٢٧ ديسمبر ١٩٢٢

«لقد كان سرورنا عظيماً عندما سمعنا البارحة اننا ذاهبان اليكم مرة أخرى مع زكي باشا وأمين بك يوسف. فظفرنا بزيارة الوداع بعد زيارة التعارف

«... نكرر هنا ما قلناه سابقاً. وهو ان أهم ما في رحلتنا هذه يقوم بما نتلقاه من أفراد أدركوا الفكرة الواحدة الشفافة التي لمسها القليلون وتتبعوا وراء الحوادث

الجزئية انظمة الكون الكبرى المُحدثة كل شيء . « أولئك نوادر قلائل في العالم بأسره وفي جميع الاجيال » كما قلتِ البارحة . ولكنهم النواة الجوهرية التي تتكون حولها دوامات الجماعات المنظمة حركاتها على يد أشخاص ثانويين . ولقد كان في نظرنا أمراً خطيراً ان نستبين هذه النواة الثمينة في الشرق الادنى وراء تحرك الخواطر والمطالب في اختمار بطيء . . . »

كالكتا (الهند) ٣٠ ابريل ١٩٢٣

« عدنا اليوم من زيارة طويلة لمدرسة تاغور سانتينكتان (ميناء السلام) . وطيّ هذا قصيدة انكليزية من الشاعر مهداة اليك خاصة واسمها « طائر الصباح »[1]

---

(١) هذه هي صورة القصيدة وهي رمزية :

SURUL

The bird of the morning sings.

Whence has be word of the morning before the morning breaks, and when the dragon night still holds the sky in its cold black coils ?

Tell me, bird of the morning, how through the twofold night of the sky and the leaves, he found his way into your dream, the messenger of the east ?

The world did not believe you when you cried, "The Sun is on his way ; the night is no more"

O sleeper, awake !

Bare your forehead, waiting for the first blessing of light, and sing with the bird of the morning in glad faith !

Rabindra Nath Tagore

« . . . سمعنا خلال هذه الاونة أخباراً كثيرة عن مصر . منها ظهور لائحة الدستور الجديد . ومنها احتجاج حزب العمال في انكلترا على سياسة لورد اللنبي : وهذه الامور وغيرها لا تخلو من الاهمية رغم ان لكل مسئلة وجهين ، ورغم ان هذه الحوادث نتائج لا أسباب . يمكننا ان ندرك ذلك نحن اللذان زرنا الشرق الادنى واستجلينا شيئاً من تلك الحركة الفكرية الواسعة التي تعمل بهدوء ليوم آتٍ

« جئنا الهند منذ ثلاثة شهور تقريباً وهو وقت قصير جداً لمن يتلمس المعنى الجوهري من حياةٍ متشابكة مرتبكةٍ في مثل هذه البلاد العظيمة المترامية الأنحاء . ومع ذلك يمكننا ان نخبركِ ببعض ما رأيناه وشعرنا به خلال هذه المدّة

« الهند ـ كبلادنا الاميركية ـ في تطور وهي الآن تجتاز أزمة سينتج عنها خير كثير للهند نفسها وللعالم اجمع . جئناها والروح مشبعة من روح ثقافتها القديمة . فوجدناها في القرن العشرين مجاهدة تتنازعها مشاكل القرن العشرين . النشء الجديد فيها جادٌّ حارّ ، ونراهُ راغباً في تأدية خدمة صالحة للنفع العام . العادات هنا بسيطة والأساليب الحيوية خالية من تكلف الرسميات الا ان أثر

الفكر الغربي آخذ في ايجاد التضاعف والتركيب فيها شيئاً فشيئاً . وترين الهندي بوجهٍ عام حساساً رقيقاً يتأثر بسرعةٍ ويلبي بكل اخلاص نداء الجود ويبادل عواطف المحبة بكل صفاء

« يخيل انهُ انحط بعض الشيء على كرّ الأجيال ، لكن ليس في جميع القبائل . فالمارانا نشيط مستقل يتكل على نفسه . والبنجابي شديد محب للحرب وان كان في وسعه ان يصرف قواه في غير المكافحة والقتال . وهو أمرٌ أثبتهُ في « امريتسار » خلال فترة اللاتعاون . أما البنغالي فهو أضعف من هذين بنيةً ، وهو رقيق لطيف ذكي طاهر القلب سامي الفكر . ومنه تلقّى الفن الهندي نفحة الانتعاش وهو الذي أوجد في الآداب نزعة التجدُّد والتحسين

« أما فقدان قيادة غاندي الشخصية فظاهر كل الظهور . وأمثال س . ر . داس موفورو الاخلاص والكفاءة الا انه ينقصهم مغناطيس المهاتما ومواهبه الروحية . على ان الشعور جلي بأن غاندي تكلم فأرسل نفحةً من روحه العظيمة وان هذه النفحة تبحث لذاتها عن طريق في حياة الهند . وأما الاتحاد بين المسلمين والهندوس فليس على ما يرام . ولهذين الفريقين دروس لا بد أن

يتعلمها أحدهما على الآخر قبل ان يتفاهما ويتحدا الاتحاد الأمثل . ورغم ذلك فهناك فكرة مستقيمة تتمشى وتنمو في سبيل الاتحاد المنشود وتقدره وتعمل له . وهـذا بلا ريب أهم أغراض غاندي

« أما تاغور ومدرسته « سانتنكتان » فخميرة فعالة في عجين الهند . كان فن الهنـد منذ قرن على لا شيء من الابداع تقريباً ، اذ كان قاصراً على النقل والتقليد . فأرسل تاغور صيحة في الهمم الخامدة وما فتىء ينادي بالهند لتجود بما لديها وتسعى لتوحيـد ثقافتها والترابط الفكري والأدبي مع سائر انحاء آسيا . عندئذ ـ يقول تاغور ـ يمكننا ان نعود الى الغرب مقتبسين خـير ما في حضارته فلا تشوهنا لأننا نكون مرتكزين على حضارتنا القومية

« فكر تاغور فكر بديع التآلف ، محكم التركيب ، بعيد المرمى . هو الفكر الشرقي المحض الذي لم تفسده نزعة سطحية أو زخارف غريبة . ولكن الرجل مع ذلك لرحابة قلبه واتساع عواطفه يدرك الجيد الحسن من جميع الجوانب ويقدر ما فيه من انسانية صادقة . . . » و . ب .

* * *

هذا الحديث عن الشرق الاقصى ما أحراه بأن يكون عن شرقنا الأدنى ، لو نحن استطعنا ان نوجد لنا اسمين متوافقين كاسمي رسولي الحرية السياسية والادبية في الهند

لقد أطلق سراح غاندي في اوائل فبراير الماضي . وما ان غادر المهاتما سجن يرودا حتى أرسل منشوره الاول بشكل خطاب الى محمد علي رئيس الجامعة الهندية الوطنية الكبرى فعبّر فيه عن عقيدته الوطنية ورغباته وآماله . قال انه يعلم ان الحالة الآن أشد قلقاً مما كانت يوم دخوله السجن . وقال انه ما زال يعتقد ان طريق الحرية والاستقلال هي — أولاً — في الاتحاد بين الهندوس والمسلمين والسيخة والمجوس والنصارى . ثانياً — في مداواة فقر الهند بالاتكال على مغازلها وانتاجها . لأنه مقتنع بأن المغازل وحدها هي التي تنقذ الهند من موتها الاقتصادي الذي تجود فيه بنفسها

ثالثاً — في التزام السلم في القول والعمل والفكر « وهي أسلحة لازمة لنا للوصول الى غايتنا » . ويعتقد انهم « لو عملوا باخلاص لما احتاجوا الى المقاومة السلبية التي يرجو ان لا يحتاجوا اليها وان كانت مؤثرة وحقة وانها حق من حقوق الامة والفرد ، بل واجب اذا هُددت حياتهما بالخطر »

هذه الاركان الثلاثة التي تقوم عليها سياسة غاندي

ذي الروح الكبيرة الحلوة يعجبنا أن نرددّها كل يوم. وبسببها. يقول رومان رولان الفرنسوي في كتابه الجديد الجميل ان « المهاتما أوجد في تاريخ السياسة أقوى وأنفذ حركة شهدها العالم منذ الفي سنة »

***

وبينا غاندي وتاغور، وهما مجدا الهند، يتفاهمان ويتعاطفان ويطلبان لوطنهما شيئاً واحداً الا أنهما لا يسلكان لذلك سبيلاً واحداً

غاندي يريد أن يجرّد الهند من كل أثرٍ غريب في الصناعة والسياسة والادارة والثقافة. وأن يعود بها الى عهد الآباء فتكفي نفسها من نتاج مغزلها ومنوالها، وتعيش عيشة ساذجة هادئة بمعزل عن ضوضاء العمران الاوربي

وأما تاغور فيمثل قوّة أخرى من القومية الهندية. ذلك الشاعر العالم والفيلسوف لم يلق بنفسهِ في المعمعة السياسية بل عني بوجهٍ آخر لا يغني عنه الاستقلال الاقتصاديُّ والسياسيُّ. وهو التهذيب القوميّ في المدرسة الحرّة، واسماع العالم صوت الهند في آدابها العالية وفلسفتها الزاخرة

في كتبهِ خاطبت الهند العالم أجمع، وما زالت تلقي

الهيبة في النفوس محرزة بذلك نصراً خالداً . وليكون أثرهُ التهذيبي مباشراً فقد أنشأ مدرستهُ « مرفأ السلام » ببلدة بلبار من اقليم البنغال، وهي التي انضمت اليها اخيراً جامعة كبيرة من هاتيك البلاد

يتخرّج النشء في هذا المعهد على آراء تاغور ومذهبهِ. ولا ريب انه سيكون قوة كبيرة في تجديد ذلك المحراب العظيم الذي ما زال مستودعاً للمثل الاعلى رغم عواصف الحياة وأنوائها

ويوم الاربعاء من كل اسبوع ، وهو يوم الراحة في « مرفأ السلام » ، كان تاغور يجمع تلاميذه ويخاطبهم كأخٍ كبير وصديق رؤوف . ومن تلك المحاضرات الاجتماعية والفلسفية والفنية التي ترمي الى تحقيق كنه الحياة والوقوف على اتصال الحياة الفردية بالحياة العامة ، خرجت مجموعة كتابه « سيدهانا » النفيسة . مؤدية صورة حية من روح تاغور النورانية الرحيبة المفعمة جمالا ولوذعية ووطنية وانسانية

فكأنه في حين غاندي « النبي السياسي الوديع » يدفع الايدي العاملة الى العمل ويحرض على الثورة السلبية ، فان تاغور يقوم على حراسة اللهيب الجوهري في حياة الهند

ويذكيه في مدرسته ويغذيه . ويرسل الى العالم الوقت بعد الوقت خبراً عنه وصورة محيية منه

* * *

كلٌّ من غاندي وتاغور متمم للآخر . واذا كان الحديث عن الهند أشبه ما يكون بحديث عن شرقنا الأدنى لتشابه المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية هنا وهناك ، فالدواء العام الذي ينشدونه في تلك الاقطار هو هو أول ما نحتاج اليه . نحن كالهند نحتاج الى التوحيد بين العناصر ليتم لنا النهوض والاخذ باسباب الحياة . نحن كالهند في حاجة الى احياء الصناعة الوطنية وترويجها لنتدارك فقرنا ونكفي حاجتنا قدر المستطاع . واذ لم يكن في الامكان ان يستغني الآن أي قطرٍ من أقطار المسكونة عن صناعة الاقطار الاخرى أو عن بعض انتاجها ، فذلك لا يخلينا من تبعة التهاون في ترويج أقمشتنا ومصنوعاتنا على اختلافها

ونحن كالهند نحتاج الى مدارس وطنية حرّة ـ دون أن ننكر فضل مدارس الاجانب ـ تكيف النفوس على حب البلاد وتتعصب لقوميتها ووحدتها . فرقيّ الامم والافراد يقاس بمبلغ امتلاكها زمام أمورها

وحسن ادارتها لمصالحها الحيوية . والتعليم (مع ترقية الصناعة الوطنية وترويجها) في مقدمة هذه المصالح . وعليه المعول الآن في الشرق لتقوم المدرسة مقام المدرسة ومقام العائلة في آن واحد . لان النشء يجد غالباً في المدرسة الراقية الجو المعنوي المثقف الذي لا يجدهُ في البيت

اعتدنا ان نلقي جميع المسؤوليات على الحكومة . مع ان التعليم يجب ان لا تتعهده الحكومة وحدها التي يهمها منه خصوصاً تخريج الموظفين لمصالحها . بل هو عمل أهلي وطني حر

لذلك حق على الشرقيين في هذا الطور الجديد ان ينيلوا التعليم الوطني الحرّ ما يليق به من الاهتمام . وان يجعلوا لوزارة المعارف حق « الرقيب الناصح لا الشريك المخالف » . ومجالس المديريات وهي الصور الصغرى لطبقات الشعب أولى الهيئات بنشر التعليم الحرّ والنهوض به

كذلك نحتاج الى ارسال صوت الشرق الى الخارج لنقول أن حركتنا السياسية والاقتصادية انما هي مظهر فقط من حياةٍ قومية غنية واسعة

امبراطور يصير ملكاً (١)

أعني الرصيف الذي طلب اهالي بورت سعيد استبدال اسمه « فرنسوا جوزيف » باسم ملك ايطاليا . وغريب أن يكون المرء امبراطوراً فينقلب ملكاً . رغم اعتقاد البشر أن الاول ارفع من الثاني . ورغم ان الملوك لا يهدأ لهم بال في هذه الايام الا اذا غنموا لقب امبراطور

قد يكون الحق في يد اخواننا البورسعيديين . غير اني لا أفهم لماذا يطلق اسم ملك اجنبي على شارع او رصيف مصري . ولا أدري ما هي علاقة عميد اسرة هبسبورج ، أو كبير أسرة سافويا بأماكن شرقية عمومية أو خصوصية

معقول وواجب ان تطلق على شوارعنا وأرصفتنا أسماء المحسنين من الاجانب . فاذا ما رأيت تمثال دي لسبس قائماً عند اليم الذي أوجد له دي لسبس يداً زرقاء تصافح البحر الاحمر وتنقل بين قارات العالم القديم (بصرف النظر عن كل ما يتخلل ذلك من السيئات واشباه السيئات) حسنات العلم والتجارة والاقتصاد . اذا ما رأيت ذلك التمثال قلتُ : « احسنت ايتها الامواج بلثم موطئ قدميه ! » وإذ

(١) كتبت هذه الملاحظة في مدة الحرب

رى تمثال ماريت باشا منصوباً فوق ضريحه على مقربة من المتحف المصري الذي سعى لانشائه، قلتُ: « لقد جمعت ايها المحسن آثار الفن المصري في متحف جميل، فنم آمناً في ظل المتحف المجيد! »

ولكني لا أحذق معنى تسمية رصيف في بورت سعيد، أو في غيرها من البلاد المصرية والشرقية جميعاً، باسم رجل اجنبي منتهى ما يعلم الباحث من مميزاته انه امبراطور

نؤخذ أسماء الشوارع من اسماء عظماء البلاد وأبطالها وكتّابها والمحسنين اليها من ابنائها احساناً مادياً أو معنوياً. أو هي تستخرج من تاريخها القديم. أو تُقتبس من حادث طرأ عليها وترك فيها اثراً. هذا هو الاصطلاح الذي يتمشون عليه في سائر البلدان. فما لامبراطور النمسا والمجر ولشوارعنا، وما لنا ولاسمه مهما يكن طويلاً عند ما يكتبه باللاتينية؟

كان وما زال سمو الخديو السابق صديقاً لهذا الامبراطور فلم نسمع ان حكومة النمسا دعت أحد شوارع فينا باسم عباس حلمي. وكان وما زال سمو البرنس فؤاد شقيق الحضرة السلطانية صديقاً حميماً لايطاليا وابنائها، وحتى الان لم نعلم ان رصيفاً في روما أو شارعاً في نابولي

يعرف باسم هذا الامير المصري

فلماذا نعطيهم ما لا يعطوننا ؟ ولماذا نجرّد ابناء الشرق من نصيبهم الطبيعي ؟

نعم ان شوارع كثيرة تدعى بأسماء الحوادث التي طرأت على المدينة وباسماء نفر من المصريين . ولكن آخرين يستحقون الذكر ولا يذكرون . بينا كثير من اسماء الشوارع تدهش وتضحك . وتحمل على التساؤل ما اذا كان رؤساء مصلحة التنظيم من الاستغراق في التأملات الفلسفية بحيث لا يدركون ، مثلنا نحن عامة الناس ، ما تكنه وتبديه تلك الاسماء من النكتة والمهزلة

في عالم الالحان

(١)

لقد أخذ المعهد الموسيقي المصري على عاتقه حملا ليس بالخفيف ووضع نصب عينيه غاية محمودة. فلا يسعنا الا التمني أن « يأخذ الله بناصره » والدعاء له بالعمر الطويل

قالت صحف الأمس ن ادارة هذا المعهد ضمت الى اعضائها حضرة الاب كولانجت وغيره من الملمين بهذا الفن المامًا نظريًا أو عمليًا . وذلك عين الصواب . إذ لا شيء يفيد موسيقانا والولوعين بدرسها مثل احتكاكهم بالموسيقى الغربية والاطلاع على افكار فناني الافرنج وأسلوب تمرينهم العقلي واليدوي والاقتباس عنهم

يعيرنا الغربيون ان ليس في الموسيقى الشرقية أفكار ولا وصف ولا تصوير ولا تصور ، ولا أوبرا . سبحان الله ! وما حاجتنا يا ترى ، نحن ذوي الاعصاب الطروبة الذين يشجينا شدو القصب وتنهد النهر ونوح الحمام ، ما حاجتنا الى اشتباك الالحان وضوضائها ؟ نحن نتمنى لموسيقانا ان تظل شرقية محضة ، تعبّر بانغامها العميقة الحزينة عن

خفايا القلب الشرقي وحنينه ولوعته، وتلمس نفوسنا بترجيعها البسيط فتهتدي فيها الى مستودع العواطف الشجية وينبوع العبرات السخينة

ان الموسيقى الغربية رغم كونها «علميّة» في طورها الحاضر تحدث مختلف التأثيرات شرط ان يكون السامع عليماً بها أو فاهماً ببداهته انغامها. والا كانت جلبة وضجيجاً لا يناله منهما غير الصداع الاليم

على ان أكثر الشرقيين يفهمون موسيقى بلادهم بلا درس ولا استعداد، لأن مقاطع الحانها ساذجة متشابهة. باستثناء المتفرنجين الذين يدعون ان الموسيقى العربية لا معنى لها. وسبب هذا الحكم في الغالب هو تمكنهم من التوقيع ـ سواء كان ما يوقعون من جيد الموسيقى الافرنجية أم من رديئها ـ على البيانو. مع ان تقدير الموسيقى الغربية لا يؤدي الى انكار الشرقية. واصدق برهان على ذلك ان جماعة من كبار الموسيقيين الافرنج حاولوا اقتباس الالحان الشرقية وادخال شيء منها في ما يؤلفون. منهم كميل سان سانس الذي ألف لحناً ممزوجاً من جملة ألحان مصرية باسم «تذكارات الاسماعيلية». فضلا عن قطعه الفارسية الكثيرة

يشعر الافرنج الذين لم يألفوا ألحاننا بشيء من الغرابة اذ يسمعونها لاول مرة، وقد يتألمون لجدة الاوزان وتنافر الاهتزازات منها وتباطؤ الآهات. ذلك لأن السلم في الموسيقى الافرنجية ينقسم فقط الى مقامات كاملة والى أنصافها. في حين قسم الشرقيون المسافات بين المقامات الاصلية فكانت عندهم « المسافة الكبيرة » المحتوية على ثلاثة مقامات سموها أرباعاً، و « المسافة الصغيرة » المحتوية على ربعين فقط. ومن ثم الاهتزازات الدقيقة التي تزعج السمع الغريب في بادئ الامر. زد على ذلك ان الاصوات الشاذة عندنا كثيرة وهي لا تندر بين أكبر ملحنينا. وأقول بصراحة اني لا أعرف بين الذين سمعتهم من الاموات او الاحياء الا اثنين أو ثلاثة من ذوي الاصوات الصحيحة. اما الاموات فاشهد فيهم، بهذه الثقة، لأني سمعت صوتهم في الفونغراف

كذلك يخطىء المغني عندنا في تقسيم اوقات الانشاد وتوازن الآهات والأدوار. فقد يبدأ باصلاح اوتاره في الساعة التاسعة ولا يفرغ من ذلك إلا نحو الساعة العاشرة. فيصرخ « يا ليل يا عين ». ويظل منادياً ليله وعينه حتى انتصاف الليل. ثم يقضي الشطر الثاني من الجلسة الموسيقية على

مقطع أو مقطعين من الدور . وكم يضيق المرء ذرعاً بهذا التطويل ويكاد يصرخ في وجه المغني : فهمنا ياسيدي ! اذكر النشوة والارتقاء وغير هذه الجملة !

ليس كلّ الغناء في اللحن فقط ، بل ان معنى الكلمات عامل أوليّ في حمل الاعصاب على الاذعان لسلطة الموسيقى . فلينوّع الموسيقيون اذاً الفاظهم ما استطاعوا . ولينشدوا كل أدوارهم وليس كلمات منها فقط . وليتركوا الليل مصغياً لآهاتهم المطربة والعين مغرورقة بدموع الحزن والسرور . والآهات مؤثرة شرط أن لا يكثروا منها الى حد يملّ عنده السمع وتسأم النفس

ليس على المعهد الموسيقي الاحتفاظ بالموسيقى العربية ونشرها بين الغواة فحسب . بل عليه وفي هذا أهمية موقفه ، ان يعنى باصلاحها وحذف ما علق عليها من الشذوذ والافراط في المرادفات ، وان يبث فيها نسمة الانعاش

نرجو ان يعنى المعهد بذلك . وما أشد شكرنا له يوم نراه قد أدخلنا في سفر التكوين

أعني بلا ضحك ، سفر التكوين الموسيقي

(٢)

كان المعهد السابق ذكره يشتغل خلال الحرب . ويظهر انهُ هو الآخر استبدَّ به المقدور المتحكم في كثير من مشروعاتنا . فكان « شعلة قش وانطفأت » . ولعلي أجهل مصيره وهو ما زال حياً يُرزَق ويرزِق ؟ حبذا الخطأ في مثل هذه الحال وفي كلّ حالٍ تشبهها !

على أننا لسنا في جمودٍ موسيقيّ صرفٍ . ولا يسعنا الاّ تقدير جهود أساتذة الموسيقى وهواتها في وسط ما زال من هذه الجهة في سبات ، ولم يستيقظ منه الاّ الأفراد القلائل

لا يخفى ان الموسيقى الشرقية جمدت عصوراً طويلة بعد ان وصلت عند المصريين والاشوريين والعبرانيين الى درجة الاتقان المتناهي . بشهادة الآلات المنقوشة صورها على الآثار . ولم يتغير السلم الموسيقي الشرقي أصلا رغم انحطاط الفنون كل هذه المدة . وأهم ما يلاحظ في الأعوام الأخيرة من قبيل التجديد هو ضبط الألحان بالعلامات الافرنجية . بعد ان كانت الألحان تنتقل بالتواتر والتداول من جيل الى جيل شأن الالحان الشعبية القديمة في أوربا

فكتابة الموسيقى اذن أصبحت غربية يزيد عليها العلامات المحتم زيادتها لان ليس في الموسيقى الغربية ما يقابلها وهي أرباع المقامات . ويساير هذا التجديد محاولة ادخال العنصر الغنائي الغربي وإدماجه في النغم الشرقي على نحو ما فعل ملحنو الغرب الذين استوحوا الموسيقى الشرقية وأفاضوا من عنصرها على مبتكراتهم . إلاّ انهم أبرع منا في الاستيحاء لأنهم فازوا بثقافةٍ موسيقية وفنية راقية . أما نحن الذين كان لنا آلات موسيقية تمتعت بكمال لم تصل الى بعضه آلات الاغريق في مجدهم ، ونشأت عندنا ذوات الأوتار كالعود والقانون والقيثار التي دخلت أوربا عن طريق اسبانيا ـ فضلا عن سائر الآلات المذكورة في التوراة ـ فما نحن اليوم الاّ في دور الثغثغة

وفي هـذا صعوبة موقفنا وكثرة ارتباكنا وتهافتنا حياناً على ما هو بالاعراض أحرى . في حين نطرح الطرفة الفنية المنيلة قوتاً وتثقيفاً وصقلا

(٣)

في فصل الشتاء تكثر عندنا الحفلات الموسيقية الوترية والغنائية . ولقد حضرت أخيراً حفلة كانت كلها مكرّسة لتوقيعات كلود دبسي الشاب الذي أبدع في الموسيقى

الفرنساوية العصرية . وهو اليوم مع ملحني الروس رائج بين هواة الموسيقى ، لا سيما منذ وفاته . لأنه بعد ان سكب شبابه الغض أنغاماً مضى . فهو يمثل في نظري الدور الذي مثله كيتس أو شلي في الشعر الانجليزي

في موسيقى دبسي تهب حيناً بعد حين لفحة من جو نا او تئن روح الشرق الحزينة . وقد بدا بعض ذلك في قطعة موسومة باسم « سهرة في غرناطة » سمعتها في الحفلة المذكورة موقعة على البيانو أحكم توقيع . لم يخلد الملحن في كل تأليفه هذا الى جو الاندلس الذي تلاقت في بيانه الفني أرواح الغزاة من العبرانيين والقلت والفينيقيين واليوناذ والقرطاجنين واللاتين والقوط والعرب . ولا تغلب على شتيته المنظم النغمات ذلك الطابع الشرقي ذو الحماسة الكئيبة الذي نستجليه في معظم ما نسمعه من الموسيقى الاسبانية . بل هو استسلم لأثر الموسيقى الاوربية المتعارضة أنغامها بالعناصر الوصفية والذهنية والتصويرية في تساوق الالحان (harmonie) لمسايرة اللحن الاساسي وهو نغم (mélodie) . استسلم لذلك وعبر عنه باسلوبه الاركستري بعد تكييفيه بطبيعته الفنية ونبوغه الطروب .

الا انه ظلّ يعود دواماً ويعود أبداً بعد كل وثبة وكرّة وفرّة الى ذلك القرار الذي تئن فيه كآبة الشرق السحيق . وتتنغم منه الزفرات والآهات على وقع خرير المياه من نوافر المرمر الشفاف ، في ليل قصر الحمراء المثقل جباه الملوك والامراء بوسم المجد وأحلام الغرام

أظن أن من أنقع ما يستوحيه ملحنونا الشرقيون هو هذه الحفلات الموسيقية تعزف فيها ألحان الغربيين الذين بين أرواحهم وبين الروح الشرقية قرابة

لأن هذه القرابة موجودة في الفن والادب والموسيقى والفلسفة . فان ادجر آلن بوو مثلا ، وموسه وبايرن ودانتي وهايني وشكسبير كذلك ، أقرب ما يكونون الينا . بينا ملتن وتاين ولافونتن وكاردوتشي ورسكن وأوهلند أبعد ما يكونون . بتلك القرابة نستوحي الموسيقى التركية والفارسية والارمنية واليونانية الحديثة والبلقانية . لاسيما الهنغارية التي يسهل الاقتباس منها مباشرة . ففيهن جميعاً شيء من ذلك الحث المهيج تلازمه النهفة الحزينة الجوهرية في الروح الشرقية . ونجد مثل ذلك في الموسيقى الروسية كموسيقى روبنشتاين وجلنكا ورخمانينوف وارنسكي ليادوف وجريج النروجي . فعند هؤلاء وغيرهم

نجدُ من الانفعال والشجن والبث والكآبة ما يجعلنا وايام في جو واحد من الطرب

ولكن صونوا كرامة الطرب ، أيها الاساتذة ، ولا تسجلوا علينا أشباه حكاية الكوكاين . لا تجدُّد لموسيقانا بهذه الدندنة التي تدعى (Musiquette) وحاشا للمحترف أو الغاوي ان يفسد ذوقه وثقافته الفنية بالاستماع الى مثل هذه الالحان التافهة . ليست الغاية من التجدد نقل الالحان الغربية على ما هي وإنما التجدُّد بالاستيحاء . كأن مثلاً ترى شيئاً جميلاً . أو تسمع لحناً مطرباً . أو تقف على فكرة رائعة فلا ترسخ في حافظتك على ما هي بلا زيادة ولا نقصان . بل هي تشعرك بوجود كنوز كثيرة وراء ما تدرك ، وتفتح لك منافذ على آفاقٍ لم تأبه لها من قبلُ . فتنظر فيها ومنها تستمد

اكبر قيمة البيان الفنيّ وقيمة الحياة الأدبية في ما تفسح من أفق وتشعرنا بوجوده من مجهول . لا بما تؤديه من المعاني المحدودة . كلّ قيمتها في حثنا على تناول أعلى مثال من الجمال وبما تبسطه من ابدية لا يلمسها الحس الا لدن يحاذي الوحي . رغم كون الأبدية كامنة في هذا الحس كما يشتمل عمر الشخص الواحد على سلسلة من حلقات

التجدد والفناء . والاثر الفني قمين بالخلود على قدر ما يحدّث عن تلك الابدية التي تتعاقب في الأجيال . وما عمل الأجيال الا أن تمرُ في رحابها وتنقضي

(٣)

بين موسيقى الشرق وموسيقى الغرب فرق اساسي فهي في الغرب علم . تمثل في تأليفها وتوقيعها مأساة الجهاد والكفاح بين العواطف والذكاء

أما في الشرق فكل الموسيقى عذاب وشجو وأنين هي صوت القلب وخلاصة التعبير الوجيع . يتجسم فيها دون غيرها معنى الامتثال اليائس والصبر المرير . فتسمعها بدأ منشدة على لحن واحد « ميلودي » . وكل إنعاشها يجب ان يأتي عن هذه الطريق وليس عن طريق ادخال التساوق « الارموني » فيها . فتساوق الالحان أخصّ خواص الموسيقى الغربية

قال لسنج مرة انه يعتقد بأن رافائيل قد كان يكون مصوراً عظيما حتى ولو ولد بدون ذراعين . والموسيقى الشرقية تستطيع ان ترتقي دون ان تتبدل طبيعتها اذا هي تعهدها الحذق الفني والحاسة الموسيقية الدقيقة

معرض الصور المصري

(١)

مارس ١٩١٩

لقد أضيف الى الاحاديث المزعجة التي ملأت اندية القاهرة في هذه الايام موضوع لطيف لم تألفه بعد اجتماعاتنا ، موضوع الفنون الجميلة . وذلك بفضل المستر ستيورت الذي عرض رسومه المصرية ، وفضل اخواننا الاقباط الذين أقاموا قبله معرضاً كشف لنا عن أمر جهلناهُ

واني لأستغفر عما خالجني من الشكوك . فاني دخلت القاعة وفي نفسي ارتياب كثير وأمل ضئيل . ولكن ما ان عرضت طائفة من متقن الرسوم حتى قلت الكلمة التي سمعتها ممن زاروا المعرض قبلي وهي : « انهُ أحسن كثيراً مما كنت أتوقع »

مرضية النظرة الاولى في الردهة الكبرى لجامعة المحبة والغرف الاربع المحيطات بها وقد تغطت منهن الجدران طولا وعرضاً . ولم أكن أدري ان للطائفة القبطية شغفاً بالرسم . غير أن العارفين يقولون ان هذه المعروضات

انما هي لبعض الغواة من رجال ونساء وان الآخرين لم يعرضوا لوحاتهم . أما المحترفون ـ وهم عدد يذكر على ما قيل لي ـ فقد أبوا الاشتراك في المعرض لانهم اشترطوا ما لم يتمّ الاتفاق عليه

لا يلوم هؤلاء من يدركُ قيمة العمل والجد لنيل غاية بعيدة ، ولكلٍّ مطالب تقاس عنده بما بذل من سعي ومجهود . على اننا كنا نود أن يتم الاتفاق على ما يرضي الغواة ولا يغضب السادة المحترفين . حتى ينجلي للجمهور مظهر صادق من الحركة الفنية عند اخواننا الذين يبالغون في التكتم واخفاء أساليبهم وميولهم عن غير الاقباط

لم يكن ثمة ما هو منقول عن الطبيعة مباشرة أو معبر عن فكرة شخصيّة إلاّ رسمان اثنان . إلا أن من الرسوم المنسوخة عن رسوم موضوعة من تماثيل ونقوش وفوتغرافيات ومناظر طبيعية ، كان حسناً . ومنها ما هو دقيق الاتقان سواء في التفاصيل والاجمال . وكلُّ من سعى لاقامة هذه الندوة وعمل في تنسيقها وترتيبها يستحق جزيل الشكر . لأنّهُ كان مشجّعاً فكرة صالحة ومعزّزاً قيمة الفن بين ظهرانينا . ومما يغتبط له بنوع خاص انّ قسما يذكر من هذه المعروضات

(النصف تقريباً) من صنع السيدات والاوانس، وهو شيء لم نكن نتوقعه مطلقاً وتسرنا منه المباغتة اللطيفة. وقد كان هناك غرفة خاصة باحدى الاوانس وقد غطت نقوشها ورسومها الجدران الأربعة. وفي غرفة أخرى كنت ترى جمهوراً من الفتيات يتناقشن ويتسامرن ويسارقن الزائرين النظر آونة بعد أخرى. ولو علمت انهن صاحبات الرسوم المعروضة لأدركت معنى تلك النظرات الخفية

ان هذا المعرض التجريبي مقدمة لتحقيق آمال كبيرة ان شاء الله. لقد قلّد إخواننا فكانوا متقنين ونسخوا فكانوا مجيدين ونائلين من مثل رئيس مدرسة الفنون الجميلة في هذه العاصمة كلمات التشجيع والاطراء. فهيا الآن الى الابداع والابتكار واستيحاء الطبيعة والحياة مباشرة بلا وسيط! نظرة عين أو ثنية شفة، أو دمعة ترتعش على حافة الجفن، أو سحابة تذهب حواشيها أشعة الشمس، أو خيال من خيالات السرور والاسى والشوق والتمني — كلٌّ معنى مهما يكن هزيلاً ينقلب أثراً فنياً بعمل المخيلة المبدعة والريشة الخالقة. وكلما عالج الفنّان التعبير عن ذاتيته نمت تلك الذاتية واتسعت. وقد اصبح باب المقابلة والمسابقة والمفاضلة مفتوحاً. وكثرة المترددين على الندوة تنبيء

باستعداد عند الجمهور لدرس الاعمال الفنية وتقديرها أي شيء أجمل من الفن وأي شيء أقدر منه على تصفية النفس وترقية الميول وتطهير الافكار وتنقية العواطف ؟ واذا انفتح ذلك الباب باب الغبطة المعنوية فهو لا يغلق أبداً . بل يعبره المرء الى عالم جديد تملأه مسرات (وآلام !) تتضاءل أمامها المسرّات والآلام الأخرى

نرجو أن يقام هذا المعرض كل عام ونرجو ان يحقق الآمال ، كما نرجو أن لا يكون في المستقبل قبطياً صرفاً بل مصرياً كلّ المصرية . لأنّهُ كما يتيسر الاخاء في أفق الوطنية كذلك هو ميسور في جميع الدوائر السامية دوائر الخير والعلم والفن والفلسفة[1]

(٢)

أبريل ١٩٢٤

رأينا هذه السنة المعرض السادس . وهو ، طبق المرام ، ذو صبغةٍ مصرية كما يليق بالبلاد التي يُقام فيها وطائفة كبيرة من معروضاتهِ من صنع المصريين . ومعها معروضات لغير المصريين محترفين وهواة رجالاً ونساء .

---

(١) كتبت هذه المقالة بتوقيع « خالد رأفت » المستعار

وهذا هو الكمال في المساواة في عوالم الفنّ والفكر والعلم حيث تتجلى الطبيعة الانسانية العامة واحدة عند الجميع

وقد درج المعرض على هـذه المساواة منذ سنته الثانية . بيد انه أقيم هذه المرة في قاعات سافواي بصورة شبه رسمية ومكبرة عن صورة المعرض الذي كان يقام في الأعوام الماضية . وهو الذي كان حجر الزاوية منه ذلك المعرض الصغير في دار جامعة المحبة القبطية سنة ١٩١٩ !

كانت القطع المعروضة هذا العام تنيف على الأربعمائة ولا أدري هل اللجنة المنظمة أصابت في ذلك . لأن الكثرة ليست ضماناً لرقيّ الذوق الفنيّ ولا دليلاً على جودة الصنعة

قد لا يغضّ التدفق من نفاسة النوع عند الطبائع الغنية الفياضة . ولكنه عندئذٍ الاستثناء الجميل . أما القاعدة ففي وجوب التأني للاتقان الذي لا كمال بدونه . والقليل المتقن لا سيما عند المبتدىء خير من الكثير المشوّش

كان على اللجنة ان تتصعّب في قبول المعروضات وان تكون أدق نظراً في الاختيار ليكون القبول منها بمثابة التشجيع لذوي المواهب الفنية والتقدير لمعروضاتهم . كان عليها ان تنبذ « الخرابيش » التي يزعم أهلها انهم يعرفون يرسمون ويصوّرون . فلا تضع الادعاء والخلوّ حيال

الكفاءة والمقدرة يطميان عليهما . وخير « للصالون » ان يحوي مائة لوحة ـ أو أقل ـ جديرة بالالتفات والاستحسان من أن يحوي مقدار ما تحويه صالونات باريس وروما ، فيظهر العجز في هذه الكثرة ولا يكون تعدّد الأطر والنقوش شفيعاً في نقص الاصل وضعفه

فمن تلك المعروضات ما كان يُحتمل احتمالاً . ومنها السطحيّ المصطنع الباهت كأنه نقش بماء الورد . ومنها ما لا يقبل الا كأثر رسم في الطفولة يوم بدأنا ننسخ طاقات الورد والاواني الزرقاء والصفراء عن دفتر كاتارينا كلاين الألمانية . وأفهم ان يستاء الفنانون من جيرةٍ لا ملق لهم فيها ولا فخر

وكان مما يبعث على السرور والأمل ان نتبين بين تلك القطع (المنسوخة عن منسوخ في الغالب) بعض الرسوم الجديرة بمكانةٍ لائقة في أيّ معرضٍ ذي كرامة . فنرى فيها فنّ التلوين ، وجرأة الخطوط ، وإحكام الرسم ، وجلاء الأسلوب ، وحذق التعبير عن خاطرة جلية أو تأثر غير مرتبك

ولا بأس من عيب أو عيوب إذا كانت اللوحة ناطقة بمزاج فني واضح الحدود والفوارق . فعيوب

المصوّر في الخطوط والألوان والشكل والقالب بمثابة الاغلاط اللغوية في آثار الكاتب . تلك الاغلاط تتضخم ولا تغتفر عند الكويتب المتطفل . بينما هي جزء من شخصية الكاتب الكبير . فالشواذّ اللغوية والبيانية كثيرة عند شكسبير ، وجلية عند بايرن وغيره ، على انها لا تنقص من قيمتهم بل الواقع انهم جوّزوها ودمجوها في اللغة لمجرد وجودها في آثارهم . وهي عيوب قابلة الاصلاح واصلاحها من أسهل ما يكون

رأينا من هذه اللوحات في المعرض . أما عيوبها ففي ارتباك التأليف وعدم مراعاة التوازن في توزيع الطباق والابعاد ، وكأنها كانت مفتقرة إلى توحيد الاسلوب على منهج واحد . ولكنّ فيها مجهوداً جميلا ، واقتحاماً جديداً ، وسعياً لشقّ سبيل غير مألوف

وهناك لوحات تستوقف الانتباه لانها خلال التعبير عن فكر متغلب أو تأثر طام أنبأتنا بأن ثمة شخصية كبيرة ومزاجاً فنياً مشوّقاً قدّر له ان يبرز بحرية وان يصعد عالياً في أفق الفن

فكما ان في هذا المعرض وجوهاً للتحسين والاصلاح فكذلك فيه حسنات توحي الرجاء . وأكبر الامل انه

يقام كلّ سنة واف في مصر الآن نواة فنية يرجى لها النموّ . فللجنة الساهرة على هـذا المعرض السنويّ أجمل الثناء ، مشفوعاً بالرجاء ان يكون الانتخاب في العام الآتي أدق وأحكم . فمصر طفلة في الفن واليقظة ، وهي كـكل حدث تحتاج إلى من يتعهدها بخبرة ومحبة

(٣)

أقول مصر في طور الحداثة وأعني كل ما تتضمنه هذه الكلمة . فان هـذا الطور إذا كان كثير العيوب ففيه كذلك حظ كبير من الحسنات والمواهب التي تنتظر الصقل والنموّ

في هـذا الطور خلوص النية وصفاء الطوية وذكاء الفؤاد ، ومقدرة العطف ، وشتى الحوافز لاقتحام أعلى القمم . وفيـه خلوّ من مرارة التجربة وتجاهل لليأس والفشل . وهو حديقة تنور فيها كل أزهار الامل

ومصر متمتعة بهذه الثروة الفاخرة

فعلى متعهدي الفن فيها ان يذكروا ان بعض الامزجة ذات وزنٍ كبير أو ذات وزن ما . وتلك هي التي يكون الاغضاء عنها جريمة وخسران . وسيكون لاصحابها أثر في

الروح العامة اذا هم وجدوا من الظروف ظهيراً واستطاعوا ان يثقفوا مواهبهم بما تقتضيه من سعي ومجهود وثبات

ولكن ليس كل من رسم كذلك . وللمرء كلّ الحرية في ان يرسم لنفسه ويعرض رسومه في منزله . ولكن حريته تغدو محدودة يوم يهم بنشر ما لها به في معرض عامّ

ان الرسم والتصوير والنحت كالشعر والموسيقى ، لا خير فيها إلاّ اذا عبرت عن مزاج تامّ وكانت على جانبٍ من الاتقان . في حين ان أية نهفة من صوتٍ ولو غير جميل ، تعني شيئاً ما وتدلُّ على خاصة حيوية . وحسبها انها تنوُّع من التنفس الذي هو أصل الحياة وضمانها ودليلها الواحد . أما التصوير والرسم والنحت والشعر والكتابة الادبيّة فلا بدّ أن يتساوى فيها حظّا الصنعة والفنّ . أيّ « كيفية » التعبير و « كميّة » من شخصية يتسنى التعبير عنها

ونحو هذه الغاية فلتسر مصر في معرضها التصويري فتنشر آثاراً توازت فيها المادة والاسلوب . وليس من الضروريّ ان يتكاثر العدد كلّ سنة ، ولكن من المحتم أن يرتقي الفنّانون وتصقل مواهبهم وتجود آثارهم . فالفنّ ككل شيء آخر في الحياة ، له مختاروه وأشياعه

وقد كان دواماً نصيب الاقلية . ولا يطلب من الجمهور الا أن يفهمهُ أو يفهم بعضهُ . وتربيتهُ على ذلك ميسورة في مثل هذه المعارض السنوية

(٤)

ومن مزايا هذا المعرض الذي يخلق « جوًّا » للفنّ ، ويبثّ في الجمهور رغبة في درس الفنّ ، وينشط معالجي الفن وهواته ، انه موضوع يمرن عليه كتابنا مقدرتهم في النقد التصويري . ومنهم من يبدي في ذلك إدراكا دقيقاً وإحساساً نافذاً ، واخلاصاً مشكوراً . فلا يسئم المواهب الصالحة بالكلام الفاتر في الموضوع الحارّ ، ولا يملق الغرور والغطرسة بالثناء الوفير على ما هو عادي قد لا يستحقّ أكثر من النظرة السريعة

« ما نفع النقد ؟ » يتساءل شارل بودلير . ثم يجيب — « الفنان يلوم الناقد في أنهُ لا يفلح في تعليم المتفرّج الرسم والنظم . وهو كذلك لا يعلم الفنان الذي لولا فنه ما كان النقد . ولكنّ هذا اللوم لا ينطبق إلاّ على النقد الذي لا يرى ولا يشعر ولا يدرك »

« كيف يكون النقد إذن ؟ »

« أعتقدُ باخلاص ان خير نقدٍ هو النقد المنوّع الشعري المبهج . لا ذلك النقد البارد الذي يسلك طريقة علم الجبر في حلّ المسائل الرياضية ، فيزعم شرح كلّ غامض وفضّ مغالق الطبيعة ، دون تحيز ولا تفور . بل بتجريد نفسهُ اختياراً من كل مزاج وكل نزعة

« يتحتم أن يكون الناقد واسع المعرفة والادراك رقيق الاحساس صادق الاخلاص ومقياسه هو الطبيعة بأسرها بانسانها ومجتمعها . ثم عليه أن يتأثر لينقد بانفعال . لأن كونك ناقداً لاينفي كونك إنساناً . والانفعال يقرب بين الامزجة المتشابهة ويسمو بالمدارك إلى علو جديد . وبهذا منفعته للفنان والمتفرج

« التصوير كجميع الفنون هو الجمال تستوعبهُ عواطف كلٍّ منا فيعبر عنهُ بانفعالاتهُ وأحلامه . أو هو التنوع في الوحدة . أو هو الوجوه النسبية المتعدّدة من الكل المطلق . فعلى الناقد البصير اذن ان ينظر الى الأثر الفنيّ والتعبير الفنيّ ومن ورائه الطبيعة وما وراءها لا يغيب عن بصره . فيشرح ما في البيان الفنيّ من معلوم ومجهول ، أو من نقص في العلاقات ، أو من علاقات مختلة . الناقد العليم القادر استاذ الحياة بما فيها من العلانية والاسرار ،

والمتحركات والسواكن . يعرّفها للفنان الذي عالجها صامتاً ويعرّفها للجمهور الذي يحدّق فيها جاهلا »

هذه بعض أقوال بودلير في النقد الفني . وهو الذي كان ناقداً ممتازاً كما كان شاعراً مطبوعاً . والكلام على النقد الفني ينطبق على النقد عموماً . اذ ان النقد كالحرية والعلم والفن لا يأتي بالطفرة ، بل هو تمرين متتابع طويل لكفاءة طبيعية

لذلك قلتُ انه إذا سرّنا ان نرى هذه المعارض الابتدائية فيسرنا كذلك ان تظهر على مقربة منها ، وتصقل عن طريقها ، موهبة النقد الذي يدرك ، ويشعر ، ويحاسب نفسه على ما يقول . مقابلا بين موضوعه وبين ما يعدله في الحياة والطبيعة والمجتمع

وهذا النقد العام الناظر الى الامور من جميع جهاتها قليل جداً في اللغة العربية التي عني أئمتها في الغالب بالنقد اللغوي وما اليه

ولذلك كان من دواعي الابتهاج ان تبدو مع النزعة الجديدة الى الحرية السياسية النزعة الى العمل الفني ، يحاذيها النقد الصادق الذكيّ

هو ثالوث حي سعيد ، بورك فيه !

لبيكَ ، يا مسيو فانبير !

المسيو فانبير هو الكاتب الاجنبي الذي يكتب لمجلة بلجيكية عن حركة الادب في العالم . وإذ همَّ بالكتابة عن الآداب العربية وجد انه في أمرها على جهلٍ تام . فبعث الى الدكتور طه حسين يشكو جهلهُ . وزوّد الشكوى بعشرة أسئلة يليها « ملاحظة » ، وجهها الدكتور في جريدة « السياسة » الى الادباء وحملة الاقلام . ولا أدري هل هم ردّوا عليها فهيئوا لمسيو فانبير مادة كافية لمبحثه عن الادب العربي

تعرف اوربا شيئاً غير يسير عن آداب الهند والصين واليابان والفرس والترك والارمن . ولا تعرف منّا نحن الا ما يحدّثها به المستشرقون عن آدابنا القديمة وبعضهم ذو فضل عميم . أما عن آدابنا الجديدة فيحدثها كتابها وسياحها الذين يمرون بالشرق فيرونه كما يريدونه أو كما يتخيلون . ويحدثها بعض محاسيبها فيذكرون لها ما يهمها مباشرةً ، وقد يؤوّلون ويكيفون لتتوافق الاحاديث وهوى المصلحة

وأدباؤنا الكاتبون باللغات الأجنبيّة يعنون بالتعبير عن شخصيتهم ، ويعالجون الموضوعات العامة لتأييد مذهب ما . فنظل مجهولين إلا من الذاكرينا الوقت بعد الوقت بما يحمل على الحكم بأنّ كلّ ما لدينا فتيتُ يقع عن موائد الغير . أو هم يفخمون بعض الحوادث والمعاني والاشخاص ويضخمونها ضاربين صفحاً عن مركزها المحدود في عالمنا الادبيّ العام

فلا عجب أن يشعر الكاتب الاجنبي بالجهل والقصور إذا هو همّ بالبحث الجدي . أما الملاحظة فأوردها قبل المسائل لأهميتها قال : « ليست هذه المسائل دقيقة ، وإنما هي أعلام تبين لك الغرض الذي أقصد اليهِ من هذا البحث . ولك الحرية المطلقة في أن تفصل ما استطعت وتبسط كل آرائك في المسائل التي القيت عليك »

وقد صدق مسيو فانبير . فليست هذه المسائل « دقيقة » وإنما هي الخطوط الكبرى الراسمة صورة الآداب ، وهي عندي أهم من « الدقة » . اذ رغم ما نريقهُ كل يوم من مداد فاننا لم نوضح بعد ما قد توضحهُ الاجوبة الصغيرة عن هذه المسائل . وكثيرون منّا لم يفكروا فيها . وفي بعض ما يكتبه أفراد من صفوة كتابنا ،

دليل على أن هذه الخواطر لم تمرّ في أذهانهم بمثل هذا الاطراد . ولا لوم . وإن جاز اللوم فهو يقع أولاً على الصحف الافرنجية التي لا تعنى عندنا بغير الجانب السياسي وتغفل ما عداه . ويقع بعدئذ او قبلئذ ، على الصحف العربية التي لا تهتم برسم صورة عامة من آدابنا . وبعد ، وقد زل بي القلم الى ما يغضب الصحف العربية والافرنجية جميعاً ، فلأمضين في الجرأة فألوم الدكتور طه حسين الذي يشغل صحيفة الادب الاسبوعية في « السياسة » بأبحاث ممتعة عن الشعراء الاقدمين ، ويتغاضى عن الادب العصري فلا ينيلهُ كلّ ما هو جدير به من البحث . وهنا اسكت وبي شبه ذعرٍ ان تنقضّ عليّ الصواعق من كل صوب

ومن ثم أجيب عن المسائل . لا لأرسلها الى المسيو فانبير بل لأهتدي الى ما يحب أن يعرفهُ الكاتب الاجنبي ، ولأرسم لذاتي صورةً واضحةً على قدر الامكان من هذه الموضوعات المتشابكة

* * *

السؤال الاول — « هل لك أن تكتب لي ترجمة مفصلة لحياتك وآثارك الادبية ؟ »

الجواب — لا ، يا سيدي المسيو فانبير ، فذلك التفصيل يستغرق حياتي الصغيرة كلها !

* * *

السؤال الثاني — « ما الينبوع الذي يستمدّ منهُ الشعر العربيّ الحديث ؟ »

الجواب — شعر شعرائنا يستمدّ الآن من ينابيع شتى لا من ينبوع واحد . فهناك الشعر المستمدّ من الشعر العربيّ القديم يتحداه ويعارضه بالوصف والتشبيب والمجاز وهو قلما استحسن الجديد . وشعر آخر يستمد من القديم كذلك الاّ أنه يتناول بعض المعاني العصرية ويلخص شيئاً من النزعات الشائعة ، فيصبها في قوالب قديمة يحرص عليها جدّ الحرص . وهناك الشعر الجديد الصرف أي المستمد من المعاني الجديدة والانفعالات الجديدة والمعارف الجديدة (لهُ) . فيصوغها في قوالب مبتكرة متفلتاً من القيود القديمة الى تحدّي الافرنج في تعديل الاوزان وتنقيح القوافي . وهذا الشعر تختلف شعبهُ باختلاف معرفة اهلهِ للغة الفرنساوية أو الانجليزية أو غيرها . ولكن هاتين اللغتين بما نقل اليهما عن اللغات الاخرى هما الشائعتان

* * *

السؤال الثالث — «ما وجهة الشعر العربي الحديث وماذا عمل فيه من المؤثرات ؟»

الجواب — أما وجهته المعنوية فلم تبرز بوضوح حتى الآن واني لا أرى غرضاً مقرراً يرمي اليه بمجموعه أو في قطرٍ من الاقطار . إلاّ كونهُ سائراً مع الجيل الجديد من الشعراء الى التحرُّر يوماً فيوماً من الاسلوب القديم والتعبير القديم والقيود الصناعية التي يتمشى عليها انصار القديم آمنين . أما المؤثرات فأهمها الشعور بحاجة البلاد وآلامها والشعور كذلك بجمالها وخلودها ، يصحبه استفزاز العاطفة الوطنية والتغني بحميد الصفات الشرقية وتعظيم الشرق وتمجيد الحرية . ومؤثرات أخرى اكتسابية أتت عن طريق الدراسة والاطلاع على مبتكرات الغرب فلفتت الشعراء الى ما هو جدير بعنايتهم وأغانيهم ، وشرحت لهم بعض ما يخالجهم ، ودلتهم على كيفية الافصاح عنه . وعندي ان اظهر ميزة في أبناء اليوم انهم يعتلجهم القلق امام مشاكل العالم . أدركتهم حمى الحياة فهم يبحثون من المسائل ، ويعون من معاني المجتمع والطبيعة ، ويحسون من روح الوجود ما كان ولا يزال الجيل السابق

غافلا عنه . ومن الدلائل اعتقاده البادي في آثاره ان مشاكل العالم تحلّ « بالنصائح » وان ما نراه من التشويش والضجيج راجع الى « عناد » الناس « وغرورهم » !

***

السؤال الرابع — « أتوجد في مصر أو في غيرها جماعات منظّمة من الشعراء ؟ واذا كانت هـذه الجماعات موجودة فما ميولها ومَن زعماؤها ؟ »

الجواب — لا أرى شيئاً من ذلك في مصر . لا يوجد هنا جمعية واحدة لا للشعر ولا للنثر . وهو أمرٌ يؤسف لهُ . وبي استعداد لألوم بسببهِ أحداً ما ولـكني لا أدري إلى من أوجه الملام . أما سوريا فقد كان فيها جمعيتان أو ثلاث . إحداها « الرابطة الادبية » في دمشق ورئيسها خليل بك مردم بك . لم تشتغل هذه الرابطة الاّ سبعة شهور ثم انحلت بأمر الحكومة . وعطلت مجلتها لأنّ أحد أعضائها اشترك في حركةٍ ثوروية وألقى قصيدة اعتبرت مهيجة . فلم ينفسح لهذه الجمعية الوقت لترينا ميلها بجلاء . إلاّ انها كانت تعني بجدّة المعنى في الشعر ومتانة المبنى ، وتنقل الى العربية شيئاً من آثار الافرنج ، وتتعهد النزعة الأدبيـة الحديثة وجانباً

من النقد الادبيّ مع تمسك بأصول اللغة ومميزاتها . وقد تشتت الآن أعضاؤها . وما زالوا يعالجون كلّ ما يميل اليه بطبيعته من شعر وأدب ونقدٍ

وفي بيروت « عصبة الأدب » ورئيسها فليكس افندي فارس . وغاية هذه الجمعية النهوض بالادب العصري . لم تحلها الحكومة ، ولكني غير واقفة على أعمالها كجماعة منظمة وإن اطلعت على آثار أفرادها المنخوبين رجالاً ونساء . وكان لها شبه لسان حال في جريدة اسبوعية يصدرها أحد أعضاء العصبة ، وهي جريدة « الشعب » التي أوقفتها الحكومة منذ عامٍ ونيف

وسمعتُ عن جماعةٍ تشبهها في حمص . إلاّ اني أجهل مبلغ قوتها وأين هي من أعمالها ونشاطها . وقد حدّثتنا الصحف عن « منتدى التهذيب » في بغداد الذي كانت فاتحة أعمالهِ انه أقام حفلة تكريم للاستاذ جميل صدقي الزهاوي

وفي نيويرك « الرابطة القلمية » وعميدها جبران خليل جبران ، ولسان حالها جريدة « السائح » النصف الاسبوعية . وميل هذه الرابطة جليّ الى التحرر من القيود الصناعية والبيانية في الشعر والنثر وتسهيل قواعد اللغة والتصرف ببعض ألفاظها . وهو ميلٌ يتطابق وحالها

المكانية والزمانية . فهي في ديار نائية تقول بالتحرر من الماضي والسير على منهج حديث في الاسلوب والتعبير . وكل آثارها قدوة ناطقة بميلها وغايتها وهي من هذا الوجه أوضح «جمهياتنا» الادبية شخصية وأجلاهن نزعة

* * *

السؤال الخامس — « ما الأطوار التي مرّ بها الشعر العربي حتى وصل الى صورته الحاضرة ؟ »

الجواب — يقول اليازجي في كتاب « المترادف والمتوارد » : « تقسم الشعراء الى أربع طبقات . الاولى الشعراء الجاهليون وهم الذين كانوا قبل الاسلام كامرئ القيس والاعشى . والثانية المخضرمون وهم الذين أدركوا الجاهلية والاسلام كلبيد وحسان . والثالثة المتقدّمون ويقال لهم الاسلاميون ، وهم الذين كانوا في صدر الاسلام كجرير والفرزدق . والرابعة المولدون وهم من بعدهم كبشار بن برد وأبي نوّاس . والمراد بالعرب منهم أصحاب الطبقتين الأوليين لأنهم نشأوا على عهد الجاهلية وهم الذين يوثق بعربيتهم ويُستشهد بكلامهم . والطبقة الثالثة منهم من عدّها من العرب ، ومنهم من عدّها من المولدين لما وقع من اللحن في كلامهم ، وهو الراجح . وجعل بعضهم الطبقات ستاً . فقال

الرابعة المولدون وهم من بعد المتقدمين كمن ذكر . والخامسة المحدثون ، وهم من بعدهم كأبي تمام والبحتري . والسادسة المتأخرون ، وهم من بعدهم كأبي الطيب المتنبي وأبي فرّاس » اه

هذا ما جرينا عليه في تمييز الشعر العربي وهو كما ترى تمييز تاريخي . أي اننا ننظر إلى أطوار الشعر بالنسبة للزمان الذي عاش فيه الشعراء دون ما شعروا به وعبروا عنه أو كظموه مما يتفق وزمانهم ووسطهم أو يسبقهما . ولا تنتظر مني ، يا سيدي العزيز مسيو إليان ج . فانبير ، ان أحدّثك عماً يدور في خلدي النسائي الصغير في ما يتعلق بهذه الأطوار ، او ان أجازف بوصفها على غير ما ألفنا . لأنك لو عرفت لغتنا الشريفة فتسنى لك ان تنظر في هذا الكتيب لرأيتَ اني لم أفلح بعد في ازالة استياء الشيخ كاظم الدجيلي بسبب « العلواء عند العرب » . أفلا يشق عليك ان اشتبك بسببك في خصومةٍ أخرى من هذا النوع وفي موضوع أخطر وأعمّ مع الاستاذ مصطفى صادق الرافعي مثلاً أو مع الاستاذ جبر ضومط ؟

ثلاثة قرون مرّت على العالم العربي وهو ميت الأحياء فلم يكن من أقوامه مجتمع ولا من لغوه صوت ورأي .

ثم عاودتهُ الحركة في القرن التاسع عشر فنشأ أدباؤه وشعراؤه أقرب إلى تقليد القديم منهم الى ابداع الجديد وبذلك أوصلونا الى حيث نحن . أما صورة الشعر الحاضرة . . . ولكن عليّ ان انتظر الاسئلة التالية

* * *

السؤال السادس — « ما العصر الذي نستطيع ان نوقت به النهضة الأدبية الحديثة ؟ »

الجواب — هو عصر النهضة والتجدد بما فيه من هدى وضلال ، وجهل يتبختر وادراك ينمو ويتعذّب

* * *

السؤال السابع — « هل ظهرت في الشعر العربي آثار للمذاهب الغربية الشعرية المختلفة ؟ أهناك تشابه ولو قليل بين هذه المذاهب الغربية وبين مذاهب الشعر العربي إن كانت هناك مذاهب للشعر العربي ؟ لو أنك أردت ان تصف الشعر العربيّ الحديث على نحو ما يصف الغربيون شعرهم فالى أيّ مذهب من مذاهب الغربيين تضيف هذا الشعر ؟ »

الجواب — كلمة « مذاهب » ليست هنا واضحة على ما يلوح لي . فلا اعلم منها ما اذا عنت الاقسام الاربعة التي اتفق الغربيون على جعلها أساسية في لغاتهم وهي :

الشعر الليريكي أو الغنائي ، والشعر الديدكتيكي أو التهذيبي ، والدراماتيكي أي المفجع ، والابيكي أي القصصي الحماسي . أم تعني التطورات التي مرت بها هذه الاقسام في المذهب المدرسي والرومنتيكي والرمزي وما ينشعب منها ؟

اسمح لي أن اذكرك ، يا مسيو فانبير ، بان فرديناند برونتير الناقد الفرنسوي يوم كتب عن « الرمزيين » قال ان الآداب الفرنساوية منذ القرن السابع عشر تنقسم الى ثلاث مدارس كبرى مقابلة لثلاث فنون مختلفة : المدرسة « المدرسية » ذات الاسلوب والنظم « الهندسي » . والمدرسة الرومنتيكية التي شغفت بالوصف فكانت « تصويرية » . والمدرسة الرمزية التي يخيل انها استوحت « الموسيقى » وحاكتها . وكان لهذه المدرسة الفضل في مقاومة التعصب للقالب الشعري الذي غالى فيه « البرناسيون » (وهم شعبة من المدرسة الرومنتيكية) . فانضوى تحت لوائها جميع الذين يطمعون في ان يجعلوا بيت الشعر الواحد معبراً عن خواطر وعواطف . وفي عصر تشبث اهله « بالناتورالزم » فزيفوا الفن وزعموا انه قائم بنسخ الخطوط البادية للعيان ، قام الرمزيون يعلمون النشء ان للاشياء

روحاً نابضة وراء جمود الظواهر وحركتها »

وجميع ما بين أيدينا من شعر ونثر يا مسيو فانبير ، مزيج من هذه « المدارس » الثلاثة . فعندنا الشعراء الذين يهندسون ويبنون (والشعر العربي ممتاز « بهندسته ») ولهم من يفهمهم ولا يقدر سواهم وينعت الذين لا يهندسون «بالخياليين» حتى ولو تكلموا عن الحديد والصوان . وعندنا الرومنتيكيون او الذين يصفون بعض الاشياء والخوالج وقد تأثروا بالمذهب الغربي ، ولهؤلاء جمهورهم أيضاً . وعندنا الذين يرون وراء الظواهر ، ولهؤلاء القلائل انصارهم من النشء في الغالب . وهذه النزعة هي البادية بنوع خاص في شعر « الرابطة القلمية » وفي بعض نثرها

ويتلخص الامر عندنا في نزعتين عامتين تنصر احداهما الادب القديم وتنكر الجديد ، والاخرى تقبل من الأدب القديم والروح القديم ما هي في حاجة اليه وتعدو مع الحركة الحديثة . ويقول الاستاذ سلامه موسى ما مفاده ان الفرق بين الجماعتين غير واضح كل الوضوح . وانما يمكن تلخيصه في ان أنصار القديم يقصرون درسهم على الأدب العربي والحضارة العربية ولا يرغبون في الخروج عن حضارة قديمة جليلة أدّت رسالتها الى العالم الا انها لا تقوم بمطالب

العصر . بينا أنصار الجديد في تطور مستمر يدرسون العلوم الحديثة والنظريات العمرانية والدينية وفروع الادب الاجنبية التي لم يعرفها العرب . لذلك يعمد هؤلاء الى الاختزال والسهولة ليتسع المجال لكل ما لديهم من القول ». وأنا ارى ضرورة وجود انصار القديم قرب الآخرين لأن عندنا جمهوراً لا يقوده غيرهم ولأنهم حرّاس ارث الماضي

وبين افراد من هذين الفريقين مشاحنات كالتي قامت وتقوم في أوربا بين مختلف النزعات الادبية . وهي بين كتابنا تلذ لي جداً . وانك قد تجد عند شاعر واحد من شعرائنا اثر المذاهب الشعرية الثلاثة دون ان يتغلب أحدها . لذلك وان كانت النزعة الشعرية ظاهرة احياناً عند بعض أفراد الشعراء فلا يتيسر تعريفها في المجموع باسم مطلق

* * *

السؤال الثامن — « أتعتقد ان هناك نهضة للغة العربية ، وإن كان نهضة فصف مع التفصيل مميزات هذه النهضة ؟ وإن لم تكن هناك نهضة فما هي اسباب الجمود ؟ »

الجواب — اعتقد ان اللغة العربية الان في بدء نهضة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الناطقين بها . ومن أهم دلائل

هذه النهضة سيرها الحثيث . وهي تتناول شتيت المسائل بلغة جلية تطرح التطويل والتعقيد يوماً فيوماً دون ان تفقد شيئاً من متانتها وروحها . جملة الكتاب في هذا العصر اوضح واصدق منها في اي عصر سبق رغم كونهم لا يتلاقون دواما على الفاظ التعبير . لأن ليس لنا مجمع لغوي يعني بتقرير الفاظ نتواطأ جميعاً على استعمالها . اما المجمع العلمي بدمشق والمجمع اللغوي المصري فهما يعملان الا انهما لم يقرّا بعد شيئاً من هذا القبيل . ويعالج كتابنا معاني وشؤوناً لم يسبق اليها تاريخ اللغة فهي جديدة في وراثتنا كما هي جديدة في وراثة العالم . واجادتهم ناطقة بأهمية هذه النهضة . هذا في الأفراد . أما الجماعات ففي جمود ولا يُرجى لها ان تستيقظ بمجموعها الا شيئاً فشيئاً بمختلف البواعث التي يأتي بها الزمن

أفتح « البلاغ » وانا اكتب هذا على مقالٍ من الاستاذ عباس العقاد . موضوعهُ « القديم والجديد » الذي يتخاصمون لاجله في هذه الايام وقد كتبه ردًّا على استفتاء أديب عراقي في الموضوع . فأجد في هذا المقال ملاحظات أساسية عن اللغة والتعبير تعزّز ما ذكرتهُ عند مناقشة « الاجبشن ميل » . والاستاذ يعتقد

كذلك اننا الآن في نهضة فريدة فيقول بالحرف « اننا في عصر لم تسعد اللغة العربية بعصر أسعد منه في دولة من دولها الغابرة » « عصرنا هذا هو أقدم العصور وأحقها بالتوقير والتبجيل لأنه وعي من الازمنة التي درجت قبالهُ ما لم تعه الازمنة الماضية ، وبلغت أممهُ من تجارب الحياة ما لم تبلغهُ الامم الخالية »

وازيد ان مصر الآن هي عاصمة اللغة العربية كما هي عاصمة العالم العربي المعنوية

***

السؤال التاسع — « ما رأيك في شعراء العرب المحدثين من غير المصريين ؟ أبينهم وبين شعراء مصر صلة قوية أو ضعيفة ؟ »

الجواب — ليس الصلة قوية بينهم من حيث تفاعل الافكار ، وانما هي متشابهة من حيث الدوافع القومية والمناهج البيانية . ففي سوريا مثلاً والعراق يروج المذهب الهندسي والوصفي . والاسلوب الهندسي أو المدرسي ما زال هو المتغلب في مختلف الاقطار العربية ، والوصفي أو الرومنتيكي هو « الجديد » . فبديهي ان الصلة أحكم بين

ذوي النزعات المتشابهة ، وان كانت تلك « الصلة » تقصر في الغالب على نقل القصيدة أو المقال ، أو الاستحسان الكلامي والموافقة السلبية . او النقد الذي يحاول ان يكون حاذقاً وقد يجيء احياناً صبيانياً

***

السؤال العاشر ـ « من أشد شعراء العرب القدماء تأثيراً في الشعر الحديث ؟ »

الجواب — يتعذر التحديد . إنما يمكن ذكر المتنبي للمفاخرة ، والمعرّي للاستياء ، وغيرهما

***

السؤال الحادي عشر ـ « بأي شعراء أوربا أعجبتَ حتى اعتقدت ان شعره يمثل عصره وبيئتهُ ؟ »

الجواب — أعجبتُ بشعراء كثيرين . نعمت في كلّ منهم بما كان عنده اوفى وأعم فغذيت به أحد ميولي . ولكني لم أجعل يوماً تمثيل العصر كله أو البيئة بحذافيرها شرطاً لاعجابي . بل اشك ان ذلك التمثيل في مقدور شاعر أو كاتب مهما يكن نبوغه عظيماً وفنه شاملا . واظن ان كلّ واحد يعطينا صورة عصرهِ وبيئتهِ بل صورة الانسانية في جميع العصور وجميع البيئات ملوّنة بلونهِ ،

متكلمة بصوته . والا فكيف يمكنني ان أقابل بين أقوال الشاعر او الكاتب وبين حالة بيئته وعصره لأبحث ذلك التطابق وأقرّه ؟ وان تعذر ذلك عليّ فهو متعذر على كل أحد . لذلك ارجح ان هذه الكلمة التي يقولونها عن بعض الكتاب والشعراء في الآداب الاوربية ، من أدلّ الكلمات على « النسبية » في الناس

* * *

ولو أردنا تطبيق هذه الكلمة على كتابنا في مصر لاستطعنا ان نجد من يمثل رأي جماعة أو يوضح اتجاه نزعة . ولكن لا يمكننا ان نجد من يتكلم بجميع مطالب عصره

ورغم ذلك فان الصوت المتغلب الآن في الآداب العربية هو صوت الاستياء والتبرم والدعوة الى الاصلاح . تعتلج النفوس العواطف والمؤثرات فتثور رواقدها فاذا بين الجيل الجديد والجيل الذي سبقه هوة . هذا يريد أن يسيطر بعدد الأعوام ولكنه لا يستطيع القيادة والهداية في تيه المشاكل . فاذا بالجيل الجديد شيخ يشعر بالمسؤولية مع اعترافه بأن الجيل السابق أدى كل ما كان في مقدوره

« لقد تبوأ منابر الأدب فتية لا عهد لهم بالجيل الماضي

ـ يقول الاستاذ عباس العقاد في مقدمته لديوان المازني ـ

« ونقلتهم التربية والمطالعة أجيالا بعد جيلهم . فهم يشعرون شعور الشرقي ويتمثلون العالم كما يتمثله الغربي . وهـذا مزاج أول ما ظهر من ثمراته أن نزعت الاقلام الى الاستقلال ورفع غشاوة الرياء والتحرر من القيود الصناعية ». « ان كان هذا العصر قد هزّ رواكد النفوس وفتح أغلاقها فلقد فتحها على ساحة الالم » « وهو العصر طبيعته القلق والتردد بين ماضٍ عتيق ومستقبل مريب ، وقد بعدت المسافة فيه بين اعتقاد الناس فيما يجب أن يكون وبين ما هو كائن

« نحن في عصر التردد والاستياء . ولا بدّ لهذا الاستياء أن يأخذ مداه ويطلع على كل نقص في أحوالنا . حتى اذا تمكن من النفوس حركها الى العمل ، وعاد عليها العمل بالرضى فلا ينسى الناس يومئذ فضل شعر الضجر والاستياء »

والاستاذ المازني يضرب على هذا الوتر بعد صدور ديوانه بأعوام ، فيقول في مقال جديد : « قضى الحظ ان يكون عصرنا هذا عصر تمهيد وان يشتغل ابناؤه بقطع هذه الجبال التي تسد الطريق وبتسوية الارض لمن يأتون من بعدهم . ومن الذي يفكر في العمال الذين سوّوا الارض ومهدوها ورصفوها ؟ من الذي يعني بالبحث عن اسماء المجاهدين الذين ادموا أيديهم في هذه الجلاميد ؟ »

والدكتور هيكل يتكلم في إحدى مقالاته عن « الالم المعنوي » الذي يعذب وهو أقسى من الالم المحسوس

وهذه الشكوى تجدها في اكثر آثارنا شعرية كانت ام نثرية . والشجعان بين أبناء هـذا الجيل هم الذين ينسون المشاكل التي تحرجهم ولا سلطان لهم عليها ، فينظرون الى ما يحيط بهم وسواء كانوا من أنصار القديم أو الحديث فانهم يعمدون الى الافادة والنفع والتنشيط . ينسون الاستياء والتفطر ما استطاعوا ولا يذكرون الا أن مسؤوليتهم كبيرة ، وان البلاد في حاجة اليهم . فيعملون

لذلك كانت ميزة الادب العصري في أنه لم يبق منزوياً او محدوداً في الفرد بل تناول فروع الحياة القومية شاعراً بانه وهذا الجمهور واحـد . وانما المسؤولية تعود على اللبيب لانه أشـد من الجمهور شعوراً بالالم والحاجة وضرورة العمل

هذه حالنا عموماً ، يامسيو فانبير ، وهي اشبه ما تكون بحالة الجيل الجديد في الغرب . مزيج من ألم وقلق وثورة اصلاحية

نشعر بمشاكلنا الداخلية ونعرف اشتباكها بمشاكل العالم فنحاول الهرب الى ما يصلح الاحوال . ولكن خيال الالم لا يغيب

زواج الشرقيين بالغربيات

(رد على استفتاء « الهلال »)

(١) السؤال ـ هل زواج الشرقيين بالغربيات مفيد أم مضر ؟
ا ـ من الوجهة الجنسية ب ـ الاجتماعية ج ـ الوطنية د ـ الاخلاقية

الجواب ـ ان زواج الشرقيين بالغربيات كسكل أمر آخر تتحاذى فيه الفائدة والضرر

ا — أما والغاية من الزواج في النظام القائم هي البنيان الاجتماعي بواسطة انشاء الاسرة وزيادة عدد المواليد والربط بين أبناء الوطن الواحد برابطة القومية ، فعلى الشرقيين أن يتزوجوا من بنات بلادهم . الا انه يستحسن الاستثناء بل هو يتحتم في بعض الاحوال . لأن الشعوب كالأسر المتزاوجة على الدوام فيما بينهما ، تنحط مع الوقت أخلاقياً ومعنوياً. وينتهي بها الأمر الى الاضمحلال والانقراض . فادخال بعض الدم الغريب على الدم القديم ضروري لتحسين النسل ، وتجديد القوى ، وشحذ المواهب

ب — الاضرار المباشرة للزواج المختلط من الجهة جتماعية في تبدل العادات العائلية ، وتغير المبادىء

القومية بالتبع . وما قد ينجم عن احتكاك الميول وتضارب نزعات من نفور واستياء . اذ ليست كل غربية لتتنازل عما تحب وترغب فيه اكراماً لزوجها وحرصاً على المستحسن من عادات محيطه وتقاليد جماعته . ولا كل شرقي – حتى وان كان من أنصار المرأة العاملين على انهاضها – ليحتمل ما ألفهُ الغربي من اختلاط النساء بالرجال ولو في أبسط المظاهر وأطهرها . وقد يحتمل فيكون مقاوماً ما يرتاحُ اليه في صميم قلبه ، وداهمهُ من جراء ذلك نكد متتابع . وهذا يجب ألاّ يكون في الحياة العائلية

أما الفوائد ففي احتكاك الشخصيات واستيحاء الجيد النافع عند الآخرين . لأن لكل أمة خصائص وثروات لا يخلو اقتباسها والاهتداء اليها من بواعث الاستنهاض والتنشيط والتدريب

ج — المنفعة من الوجهة الوطنية أقلّ من الضرر . ذلك ان المرأة ذات العاطفة العالية قد تبث روح الوطنية وتذكيها في محيطها الا أنها تؤوّلها سهواً أو عمداً في مصلحة قومها وبلادها . لذلك كان ابنُ الوالدين المختلفي الجنسية أقرب الى شيوعية الوطنية واقتباس الحسنات منها والسيئات . وكان الزوجان من الوطن الواحد أدنى الى

التفاهم والاتحاد حيال المشاكل الوطنية والقومية

د — يتعذر تحديدُ القول في الوجهة الاخلاقية لأنها مرهونة بالاخلاق الشخصية . الا أن هناك خطراً عاماً لا يستهانُ به . لأنه اذا انصرف الشرقيون الى التزوج بأجنبيات فمن يتزوّج الشرقيات ؟ ومن الجور ان تقهر بنات الشرق على عيشة الخلو والوحدة ، وقتل عواطف المحبة وبذل الذات في نفوسهن ، وأن يحرمن عذوبة الحياة العائلية لتتمتع بها الغربياتُ على حسابهن . وليس أدعى الى طرح القيود المحترمة المقبولة من وقوع الظلم والتعسف على امرىء دون أن يجني اثماً . فقد تتسرب المرارةُ الى خلقهن من هذه الناحية فيناهضن محيطهنّ تمرداً ، أو مكابرةً ، او انتقاماً

* * *

(٢) السؤال — اذا تزوج مسلم أجنبية مسيحية ، فهل يحسن أن تعيش بدينها وعاداتها أم يرغمها زوجها على تغييرها بالدين الاسلامي والعادات الشرقية وأخصها الحجاب ؟

الجواب — لا استحسن الارغام مطلقاً ، لا سيما فيما يتعلق بالدين . ولا بد ان ينظم الزوجان علاقتهما وفقاً لمزاجيهما مع بعض التساهل من الطرفين دفعاً للمشاكل والمصاعب . ولا اسوغ الارغام الا عند الضرورة القصوى ،

اي اذا ساء سلوك المرأة فسهت عن كرامتها . او عندما تكون هي في حاجة الى ذلك . لان مما لا ريب فيه ان بعض النساء ، غربيات كنّ أم شرقيات ، لا تنتظم منهن الحياة الا اذا عرفت تقودهنّ يدٌ حاذقة قادرة . بينا اخريات يزددن كرامةً وارتفاعاً كلما اجيز لهن التصرف بحرية

***

(٣) السؤال — هل من فائدة للعالم الاسلامي والعمل لوحدته في التزاوج بين المصريين والترك والافغان والفرس والمغاربة ؟

الجواب — التزاوج بين المصريين المسلمين وغيرهم من الامم الاسلامية خير ناشر للرابطة الاسلامية . وقد سبق ان المسلمين جنوا فوائد هذا التزاوج أيام الفتوحات اذ كانوا يصاهرون القوم في كل بلد ينزلونها . فلا ينقضي زمنٌ الا وهم من الأهلين . على نقيض اليونان واللاتين الذين احتلوا البلاد قبلهم . فلم يمتزجوا بالاهالي وظلوا ، حتى تقلص ظلهم ، الغرباء الممقوتين . على اننا نرى العناصر الاسلامية اليوم غير ميالة الى التضحية بعنصريتها القومية في سبيل قومية اسلامية كبرى . بل نرى المصري شديد التمسك بمصريته . والتركي بتركيته الخ وان هم رغبوا في الوقت نفسه في

ايجاد الرابطة الشرقية المعنوية للوقوف في وجه الغرب وصد تياره الجارف

***

(٤) السؤال — لماذا يكثر التزاوج بين المصريين المسلمين والاجانب المسلمين المستوطنين مصر ، ولا نرى أثراً كبيراً لذلك بين أقباط مصر المسيحيين وغيرهم من المسيحيين غير المصريين المقيمين بمصر ؟

الجواب — ان المسيحيين غير المصريين لا يتزوجون عادة الا بعد الاجتماع والتعارف ، بخلاف المسلمين الذين كانوا الى هذه الأيام يتزوجون بلا سابق معرفة شخصية بين العروسين . وقد غلبت العادات الاسلامية على الاقباط فحالت دون امتزاجهم بالمسيحيين غير المصريين . والمسلمون المصريون يشبهون المسلمين غير المصريين ، في الغالب ، عادات وأساليب اجتماعية . أما المسيحيون غير المصريين فلهم من العادات وشؤون الاجتماع على اختلاف الطبقات ما لم يألفه الاقباط . والشاذ لا يعد قياساً

وأظن ان الزواج بوجه عام أقرب الى المسلمين منه الى المسيحيين بسبب سهولة الطلاق التي تمكن كل رجل وكل امرأة من تنظيم حياتهما على طريقة جديدة في زواج جديد

نهضة الشرق العربي

(رد على استفتاء « الهلال »)

السؤال ـ « هل تعتقدون ان نهضة الاقطار العربية قائمة على اساس وطيد يضمن لها البقاء ام هو فوران وقتي لا يلبث ان يخمد ؟ »

الجواب ـ يتعذّر اطلاق حكمٍ شامل على جميع الاقطار العربية ونحن بعيدون عنها لا نعرف من أحوالها سوى ما تشرحه لنا صحفها وكتبها فضلاً عن الانباء التلغرافية والاخبار السياسية . بيد انه يمكنني ان أتكلم عن مصر وسوريا . ويظهر ان احوال البلدان الأخرى أحوالها مع الاختلاف المحتوم الملاصق بكل قطر

لكلمة « نهضة » التي نستعملها بمعنى (Renaissance) معنيان اثنان : أحدهما تجدُّد الامة في مجموع أحوالها بعامل أو عوامل استفزّتها وتغلبت على العوامل الأخرى : كالنهضة الادبية الفنية في أوربا في القرن الخامس عشر .

والنهضة العلمية والآلية في أوربا وامريكا في القرن المنصرم وفي هذا القرن العشرين

أما المعنى الآخر فهو الانتباه لوجوب إحداث التغير والشعور بابتداء وقوع ذاك التغير . فالتجدد هنا هو التيقظ والرغبة في الأخذ بما أخذ به آخرون فوسع عندهم مجال الحياة فاستفادوا به وخسروا ، وتنعموا وتوجعوا . هو تحفز ومباشرة جميعاً . وهذا المعنى من النهضة يتطابق والحالة في مصر وسوريا ، بما يتضمنه من قلق واضطراب ، واندفاع ورعونة صبيانية ، واخلاص وارتباك ، ونشاط وخطأ واصابة . وبمثل هذا تبدأ دواماً النهضات الحقيقة بهذا الاسم . اذ لا طفرة في الحياة ولا بدَّ لكل نضوج ان يستكمل وقته ونظامه

أما كون هذه النهضة « قائمة على أساس وطيد » فليس ذلك بالمطلوب . اذ لا يحتاج النهوض الى « أساس » يضمن له البقاء ، بل يحتاج الى « دافع » يسوق ويستحث ويحدو . والدافع موجود ، ولذلك لن تكون هذه النهضة فوراناً وقتياً . بل هي على نقيض ذلك ابتدأت منذ عهدٍ قريب وستظلّ في تزايد بتفشي حمى الحياة بين شعوب المسكونة . ان الحضارة العالمية الكبرى تنتقل من

شعب الى شعب خلال الدهور بحركة متموّجة : تعلو موجتها في أمة فتتجلى مواهب تلك الأمة وتأتي بأقصى ما في امكانها . ثم تهبط الموجة لتتكوّن من جديد عند شعب آخر ، بينا تتأثر بارتفاعها سائر الشعوب بدرجات متفاوتة

وكذلك الشرق العربي بعد إجهاد تسعة قرون أدّى فيها خدماً جليلة إلى العالم ، وكان بازدهار مدنيته وانتشارها وصلة بين الماضي والحاضر ـ عاد فهجع ثلاثة قرون شأن من ينام بعد مجهودٍ كبير ليستردّ قواه . وعندما استيقظ وجد نفسه وقد أحاطت به أحوال جديدة تقتضي أساليب جديدة عند من يود مجاراة الآخرين حراً لا عبداً . فنهض الشرق يطالب بكل ما تسوغه الحياة لبنيها النشيطين . ولئن بدت هذه الحركة مشلولة من جهةٍ ، كفيفة من الجهة الأخرى ، تفتقر الى الدربة العامة والنظام والتنسيق فما هذا الاضطراب الا طبيعيٌ يلازم الخطوات الاولى في جميع دوائر النشاط الانساني . وسيأتي الزمن والمران والاختبار بالحنكة المطلوبة ، والانتظام في مختلف الجوانب

واكرر ان « الدافع » موجود في جميع أقطار الشرق

بشكل الاحتلال الاجنبي . وهو طبعاً صائر من عنيف الى أعنف بتنور الاذهان والتيقظ لمعنى الحرية ، بل لدويّ اسمها وحده دون ادراك معناها . ولا قبل لاحد في هذه الايام الى مقاومة هذا الصدى الرنان المتفشي في النفوس

* * *

السؤال ـ « هل تعتقدون بامكان تضامن هذه الاقطار وتآلفها ؟ ومتى ؟ وبأي العوامل ؟ وما شأن اللغة في ذلك ؟ »

الجواب — بين هذه الاقطار منذ الان تآلف ضمنيّ منشأه ذلك « الدافع » المكوّن من طلب الحياة الجديدة ومن كره الاستعمار والرغبة في دفع سيطرة المستعمرين عن مرافق البلاد وشؤونها . فالهزّة التي تضرب اليوم في الشرق هزّة سياسية . وغريمته هي أوربا القوية ولية الامر في الاختراع والصناعة والاقتصاد والمواصلات والحرب وما نحوها . وبديهيٌّ ان أوربا لا تريد هذا التضامن لانه يناهضها ليسلبها ما هي في جد الاحتياج اليه

إن ما دفع بأوربا الى الهجرة والاستعمار في بادىء الامر ليس الطمع . بل هو ذلك الباعث الاقتصادي المتلخص في

« فقر البيئة بتزايد عـدد سكانها » . مضت تستغل موارد الثروة الغافل عنهـا أهلها فاذا بالسفن تعود الى البـلاد الاوربية طافحةً بالمواد الغذائية ، والمواد الغفل التي أنشأت تدير بهـا رحى الصناعة ، ثم توزع الانتاج على الآفاق فتجني أرباحه . وما زال الغرب ، وهو اكبر دار للمعامل والمصانع ، يحتاج الى ان تمده الاقطار الاخرى بنقصه من الثمرات والاقوات والمواد الغفل ليصنع ويربح ويحيا ـ على ما اعتاد ان يحيا بعـد انتشار الاستعمار . فالغرب بالتفريق بين الاقطار الشرقية انما يدافع عن ثروته وحياته . والشرق المتيقظ يطلب كذلك ثروته وحياته . وسيتتابع الصراع بين الفريقين

وعلى أي فقد انقضت للمستعمرين أيام الهدوء والهناء . واذا كان لا بد من التموين وتبادل الانتاج بين الشعوب فيتحتم ان يختلف نوعه وطريقته بعد الآن . انّ العالم كله في عذابٍ واضطراب الشرق والغرب سواء بسواء . والمؤتمرات الواحد والعشرون منذ الصلح مهزلة جعلت العالم اشد شعوراً بضرورة « تصفية كبرى محسوسة » تعدل فيها المصالح ، وتراعى الحقوق ، وتنظم المطالب بلا تحفظات ومداورات . والمستقبل وحده يعلم متى تتمّ تلك « التصفية » وهل هي تجيء عن طريق

لحرب أم السلم

أما الترابط بين أقطار الشرق العربي فيظل تعاطفاً أدبياً حتى ولو جلا عنه الغرب. اذ صار الناس اليوم يطمحون إلى « القوميات » ويرغبون شديداً في الاستقلال ضمن حدود وطنية طبيعية. هذا الا اذا جاءتنا الايام ببعض مباغتاتها فكثيراً ما تأتي الايام بما ليس في الحسبان. وأياً كان المستقبل فاللغة العربية خير وسيلة لهذا التعاطف الادبي والتفاهم المعنوي بين ابناء الشرق

* * *

السؤال ـ « هل ينبغي للاقطار العربية اقتباس عناصر المدنية الغربية ؟ وبأي قدر ؟ وعند اي حد يجب ان يقف هذا الاقتباس

ا — في النظامات السياسية الحديثة. ب — في الادب والشعر. ج — في العادات الاجتماعية. د — في التربية والتعليم ؟ »

الجواب — لم تقم الى الآن في الشرق والغرب والشمال والجنوب سوى مدنية واحدة تعاونت الشعوب، على غير اتفاق، ان تتناوب العمل كل في جانب من جوانبها الموافق طبيعتها. فجاء الساميون بالعنصر اللدني والنبوي. وجاء

الاريون (الهنود والفرس) بالفلسفة الباطنية والالهيات . وجاء اليونان بالفن والفلسفة النظرية . والرومان بالنظام والتشريع والتجنيد والاستعمار . ولما تحضر العرب فعلوا ما فعلته كل من هذه الدول قبلهم ، أي انهم جمعوا شتيت ما وجدوا من عناصر المدنية ، وسبكوها في قالبهم وطبعوها بطابعهم فكانوا وصلة أمينة قيمة بين الماضي والحاضر

ولما حان الوقت نقلوا قبس الرقي الى الغرب فأحسن الغرب تلقي هذه المدنية العظيمة التي تجمعت فيها جهود الدهور . فأتماها من وجهها العلمي والآلي المتفق تمام الاتفاق مع السليقة الغربية وسار بها شوطاً بعيداً

ولا يعني هذا ان الشرق ليس لهُ مثل ذلك الاستعداد . ان أساس الهندسة ، وخد الخنادق ، ووضع مبادىء العلوم الفلكية والرياضية ، جاء من أشور وبابل . كما كان الفينيقيون أول المستعمرين وأول من سلك البحار . وكما كان المصريون أول شعب وضع الانظمة ونسق الادارة

ولو نظرنا مثلا الى القانون الساري اليوم في المحاكم المصرية الاهلية (فضلا عن المختلطة) لوجدنا انه قانون نابوليون معدّلا بعض الشيء وفقاً لطبيعة البلاد . وقانون نابوليون مأخوذ عن قانون يوستنيانس الروماني .

وهذا جاء بقانونه من القانون اليوناني بعد تأثره بالمذهب الرواقي . والرواقيون واليونان جاءوا بأنظمتهم بعد تلخيص الفرس وغيرهم من القانون المصري القديم . وهكذا لم يستنبط أولئك شيئاً ، وان نحن نعتنا الاشياء مجازاً بأسماء الشعوب التي نأخذها عنها

الاقتباس تبادل بين الامم على مرور الدهور . وبينا يأتينا الأجانب يشيدون في بلادنا مدارس وجامعات يخرجون فيها ناشئتنا على أساليبهم في التربية والتعليم ، ترى مثلاً وزير الزراعة الاميركية يخابر وزير الزراعة المصرية مستعلماً عن طريقة زراعة القطن ، وعن طريقة صيانته من الحشرات في وادي النيل ، ليستعين بهذه المعلومات على تحسين زراعة القطن في البلاد الاميركية

هذا ـ فان قمنا اليوم نزاور من أوربا الانظمة السياسيّة ، والمنافع العلمية ، والاساليب العمرانية والآلية والتجارية ، وكل ما تبديه من نشاط حيوي جميل يشعرنا في الانسان بفتوة وذكاء عظيمين . لو أعرضنا عن هذه المدنية الغربية ، أو بالحري عن هذا المظهر الأوربيّ والاميركي من المدنية العالمية الكبرى ، فالى أي مظهر نتوجه وبأيّ الأساليب نأخذ ؟ واذا صممنا على ان لا

نرى في المدنية الا ما يزعجنا من ضلال وشطط فنحن الا ناسون ان هذا وجه الضعف البشري الذي وجد في جميع العصور ، ولكن بأساليب مختلفة . واذا انقطعنا عن حركة الحياة سجلنا على نفوسنا البله ونحن أذكياء ، والخمول ونحن ناهضون . ولا يبقى لنا سوى ركوب الأظعان في البيداء ، والسكنى تحت بيوت الشعر ، والحداء الشجي في الليالي القمراء والرقص بالسيف والترس

لا أقول ان هذه العيشة البدوية غير جميلة . انّ فيها لهناء وراحة ونبلا . ولكن بشرط أهلها باكتساح عاجل أو آجل لانّ الحياة تتأجج حواليها ، وأصوات الآلات تهدر محلقةً فوقها وعلى مقربة منها . ان الارض تضيق بساكنيها وحمى العمل تدوخ الشعوب ، والامكنة الصالحة الغنية مطلوبة لا غنى عنها ، وللنشيط حق عليها . لأن نظام « الحق للقوة » نافذ في الطبيعة وليس هو من ابتكار المستبدين . فان لم يكن أهل البلاد أقوياء عارفين بالطرق الحديثة مجارين حركة العالم اكتسحوا واستعبدوا . ونفذ فيهم قانون تغلب الاصلح

في الاقطار العربية شخصية الماضي الذي لا بد ان نتكىء على بعضه دون ان يعارضنا في اكتساب ما يعود

علينا بالحياة والحرية . عندنا عادات جميلة ووراثة اثيرة تحسن المحافظة عليها غير انها لا تكفينا . ليتغنّ بها الشعراء ولينشدها المنشدون ولينح عليها محبو الندب والنواح . ولكن مهماز الحياة وراءنا . واقتباس المحتوم لا يغض من كرامة الامم لانها مركبة من روح وجسد . فشعرها وفلسفتها وفنونها وآلهياتها واديانها وتذكاراتها الثمينة كلُّ هذا بمثابة غذاء الروح . اما الحياة المدنية منها ، الحياة الحسوسة ، فلها أساليبها الالية والمالية والاقتصادية والاجتماعية . والا فالغلبة والاستعباد . ولئن تحتم حمل القيود ، فقيود يصيغها المرء لنفسه خير من قيود تربطه بها الايادي الغريبة

أما الانظمة السياسية فلا « ينبغي » أن نقتبسها ، بل تقودنا الحاجة اليها شيئاً فشيئاً وتوحي الينا الضرورة بما يحسن اقتباسه منها في صور مناسبة لحاجتنا . وهذا ما جرى لتركيا التي حوّرت نظامها السياسي ثلاث مرات في ١٥ سنة فقد أوحت اليها الاحوال بحاجتها وبما تظنه حسن العائدة عليها ، وهذا ما يجري لجميع الامم . كما فاجأت الاحوال مصراً بحركتها الوطنية التي لم تكن في الحسبان قبل شهور او اسابيع

والانظمة السياسية والاجتماعية أبداً في تفاعل . وهذا من بواعث التجدد في الآداب . لأن الآداب وان كانت ترجمان عواطف راسخة في الافراد ، فان لغة هذا الترجمان وأسلوبه يختلفان باختلاف العصور والبيئات والاحوال . ولا غنى لنا عن الآداب الغربية وليس اطلاعنا عليها اقتباساً بل هو تعرفاً بالعالم واستيحاء . فلماذا يستوحي المصادر العربيـة دانتي مثلاً ، ويظل أدبه إيطالياً ؟ ويستوحي كبار شعراء الفرنسيس في القرن السابع عشر الآداب الاسبانية والعربية والانجليزية واليونانية واللاتينية فيظل أدبهم فرنسوياً ، فلا ننتفع نحن بما هو جائز للآخرين ؟ ان الانحصار في موضوع واحد يضيق الفكر ويحمل على الغرور ولا بدّ من اختلاف انماط الادب في اللغة الواحدة والوسط الواحد . لأن شاعر القصور لا يمكن ان يكون شاعر الاكواخ . والعكس بالعكس . وان كان لكل شاعريته وعاطفته ومنفعته وصيحته وأثره في جماعته

أما في التربية والتعليم فحاجتنا الى الاساليب التي تعرفنا ببلادنا أولا وموقفها وشأنها ، وتربي على الاستقلال والرجولة والنشاط والاتكال على النفس . وتدفع رجالنا عن الوظائف الحكومية الى الاعمال الحرة والعناية بتجارة

البلاد وزراعتها ومنتوجاتها واستغلال مواردها. ولا خوف أن يخنق هـذا المنهج العملي مقدرة الابتكار في الشرقيين. فما الابتكار الا من خصائص الافراد الافذاذ من كل أمة مهما عظم شأنها. وهؤلاء يظلون فوق المناهج الدراسية والانظمة لا يتقيدون بمكان ولا زمان. أما الاكثرية الساحقة فهي المقلدة المسيرة، المحتاجة الى حياة محددة معروفة السبل يسير فيها الجميع على السواء

للافراد ان يعتزلوا وينقطعوا ويرغبوا في حياة العزلة (ولو سألتهم عن هذه الحياة لما أحسنوا تعريفها ولا تجردوا فيها من مبتكرات المدنية وحاجتهم الى أبسط آلاتها ومنافعها). على ان ذلك الانقطاع لا يحيي الامم. وقد تجوز الراحة لمن جاهد كثيراً ولكنها لا تجوز لامة ما زالت تفتح عينيها لليقظة وتتحفز للنهوض. فالامة صورة مصغرة من الانسانية، والانسانية مستودع جميع النزعات والكفاءات والعبقريات والمقدرات. فالمظهر العلمي الآلي في الانسانية عبقرية بديعة مدهشة. وان كان لهذه الحضارة عيوبها، فأي حضارة، وأية حال انسانية تخلو من العيوب؟ ومصالح الاوطان والشعوب هي غير مصالح الرهبان في الاديار، وشيوخ الطرق في التكايا. وأغراضها القاسية

غير أغراض الفلاسفة والزهاد في الصوامع

تتحتم اذن تنشئة مختلف القوى في جميع أفراد الامة والاستفادة بكل تجدُّدٍ في العالم . ويتيسر تلافي عيوب العصر ما أمكن بالمحافظة على ما في وراثتنا من حميد الاخلاق . فلنحافظ على كل جمال شرقي ، ولنروج كل فن شرقي ، ولنعتز بلغتنا الشرقية دون ان نغض الطرف عما يقدمه لنا الغرب من جمال وفن ونظام وابتكار . وليس في ذلك القضاء على شخصيتنا فالشخصيات «الذكية» تنمو وتتسع وتغنى ولا تفنى . والحياة وكل ما في الحياة حب ، أي تبادل في الاخذ والعطاء . والانسان في العالم وارث ملك لا تحده حدود الاقاليم ثم يترك الارث لمن يليه بعد ان يضيف اليه عمله الفردي . فالاعراض بلاهة وسجن تضييق . وتحديد الحياة حرمان ومجازفة وعبودية

لقد أعطى الشرق الغرب أدياناً وأخلاقاً وفلسفة الهية وانبياء والهاً . فتلقاها الغرب شاكراً وارتقى بها . أفيخجلنا ان ننتفع باختباراته الدنيوية وعلمه والدنيا دنيا الجميع كما ان الخالق اله الجميع ؟

كتب بقلم « مي »

. . .

باحثة البادية
غاية الحياة
كلمات واشارات
المساواة
سوانح فتاة
ظلمات وأشعة
الصحائف
بين الجزر والمدّ
رجوع الموجة
الحب في العذاب (جزآن)
ابتسامات ودموع

. . .

بالفرنساوية

Fleurs de Rêve

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

NYU - BOBST
31142 02823 4329
AC106 .Z5 1924
Bayna al-jazr wa-al-madd : saf